

وقفات تدبرية

وفوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة

أحمد عبد الله الدوسري



وقفات تدبرية وفوائد مختصرة

مع

آيات سورة الفاتحة

جمع وترتيب

أحمد عبد الله الدوسري

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ / ٢٠٢١ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله على نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة، مستحق
الحمد وأهل الثناء والمجد، وأصلي وأسلم على خير خلقه
وخاتم رسله سيدنا محمد.

أما بعد:

إنها سورة الفاتحة، سورة الهداية والنعمة، وسر الخلق
والأمر، هي الفضل المبين والخير العميم الذي هو للمؤمن
نور وهدى وورحمة وبشرى.

في هذه الصفحات نقف خاشعين أمام جلال وجمال أنوار
الحمد والرحمة، والعبادة والنعمة، نتواصى بالحق، ونتأمل
ونتدبر ونتفكر في بعض من معاني وهدايات سورة الفاتحة،
أعظم سورة في القرآن، بل هي أم القرآن كله.

لقد جاءت الفاتحة لتحرر العقل البشري من أدران
الشرك، وتبعده عن الزيغ والضلال، وتركز فيه عقيدة





وقفات تدبرية وفوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



التوحيد، وتوجهه إلى الخالق الديان، وتؤصل فيه الإخلاص لرحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، جاءت لترسم للمرء الغاية من حياته، وتُرشده إلى وسيلة تحقيقها، فيزداد المؤمن إيماناً وصلةً برب العالمين.

إنه مهما تحدث المتحدثون، وكتب المفسرون، وحاضر ودّرس الفقهاء والمعلّمون على مر الأزمنة والعصور، تبقى سورة الحمد منهاً لا ينضب، يستحق أن تبذل الجهود في بيان دلالتها العظيمة ومقاصدها وأسرارها، وإعادة صياغة ذلك البيان بأسلوب سهل، بعيداً عن الإسهاب العلمي المتخصص، من أجل توضيحه وتبسيطه لعامة المسلمين، وتذكيرهم بفضل السورة وهدايتها، فهي أعظم وحي نزل من السماء على الإطلاق، هي سر الهداية، هي سر الحياة، هي أنشودة المؤمن في كل حين.

ولا اهتمامي بها وكثرة قراءتي عن أسرارها ومعانيها التدبرية، رجعت إلى كثير من المصادر المتنوعة، واقتبست بتصرف أحياناً كثيراً مما كتب عنها في أكثر من كتاب ومؤلف، أو منشور على الإنترنت، أو مما سمعته من مقاطع صوتية، أو





وقفات تدبرية و فوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



على اليوتيوب من أهل العلم الثقات المشهود لهم بالفضل، فجمعت ما اطلعت عليه، ودونت ما اطمأنت نفسي إليه، راجيا أن أكون قد أحسنت فيما استحسنت جمعه، فلم أحرص على مادة علمية عميقة، بل تخففت من بعض القيود والأمور التي ينبغي أن تراعى في تأليف الكتب العلمية، مبتعداً عن اللغة الأكاديمية العلمية، قاصداً توضيح المعنى والفوائد التدبرية بشكل مباشر، والتشويق والتخفيف على القارئ غير المتخصص في العلم الشرعي.

وكنت أرجو لو أنني احتفظت بنسبة كل قول إلى قائله، لكن لم أتمكن لطول الوقت الذي استغرقه هذه البحث، فأستسمح كل من اقتبست منه أو أخذت عنه ولم اذكر اسمه، وأجره على الله، وحسبنا من ذلك نشر العلم وتقريبه للناس.

وإني لا أدعي لنفسي في ذلك شيئاً، بل الفضل في ذلك كله لله تعالى وحده، ثم لأهل العلم الذين جمعت عنهم أطيب الثمر، ممن دونوا وسجلوا، وأسمأؤهم معروفه ومؤلفاتهم منشورة ومقاطعهم الصوتيه مبذولة، لكنني اجتهدت واقتبست من كل أفضل ما لديه من الفوائد واللطائف والمعارف التدبرية،





وقفات تدبرية وفوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



وأخرجتها ورتبتها على شكل جمل مختصر وبأسلوب سهل ما أمكن، فاقتصر دوري على الجمع والترتيب.

وقد يلاحظ القارئ بعض التكرار عند شرح معاني الآيات الكريمة، مع تغيير الصياغة والأسلوب، وذلك بسبب تعدد النقل من المصادر، وهو مفيد أيضاً لتبسيط المعنى وبيان الشرح التدبري على أكثر من صورة.

وختاماً، فإنها محاولة جديدة لنشر العلم النافع والتواصي به، بأن نتدبر سورة الفاتحة كمنهج للإيمان والعمل الصالح، فهو السبيل للنجاة والطريق الموصل إلى الجنة، فإن أصبت فمن الله **جَلَّ جَلَالُهُ** وله الحمد والشكر، سائلاً المولى **جَلَّ جَلَالُهُ** أن يجزل المثوبة لمن جمعت عنهم، ولكل من شارك في مراجعة أو تصحيح لتعم الفائدة، وحسبي من ذلك نشر العلم ورفعة إخواني المسلمين.

أحمد عبد الله الدوسري

محرم ١٤٤٣ هـ

dosar2022@gmail.com





تحرير عام

﴿ بين يدي السورة ﴾

سورة الفاتحة هي أعظم سورة في القرآن، وهي خير ما نزل من السماء إلى الأرض، وسميت «القرآن العظيم» دلالة على أنها أعظم سورة فيه، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ»^(١).

لم ينزل الله مثلها في كتبه، هي «أم الكتاب» دلالة على أنها جمعت كل القرآن، وهي في أربعة سطور، فهي فهرسه - إن صح التعبير - فما أحرانا بالاهتمام بكل حرف فيها.

اشتملت سورة الفاتحة على مضامين القرآن من المعارف القرآنية والعلوم الكلية، فاشتملت على مقاصده ومطالبه ومعانيه الجليلة واحتوت أسراره.

هي تحمل الوحدة الموضوعية التي تدور حولها مطالب القرآن الكريم كلها، وكليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجهات، وهذا

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب (رقم ٤٤٧٤).





وقفات تدبرية و فوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



ما يشير إلى طرفٍ من حكمة اختيارها للتكرار في كلِّ ركعة،
وحكمة بطلان كلِّ صلاة لا تُذكر فيها.

فيها قواعد كلية تلخص الدين من أوله إلى آخره، لا يخرج
منها شيء مما أراده الله **عَزَّوَجَلَّ** من عباده، فكل ما جاء في كتاب
الله هو تفسير لها وبيان لمعناها.

فيها أسرار المبدأ والمعاد، فحريٌّ بنا أن نجعلها منهج
حياة، إذ هي تعدل كل القرآن، وبناء على ذلك كانت مشتملة
على غاية الكمال الإنساني.

سميت بالفاتحة لأنه افتتح بها المصحف، ولأنها مفتاح
القرآن، أي لمعانيه، فيها تفتتح كل سورة من سوره، فكل كنوز
القرآن فيها، ولو فهم المرء الفاتحة فسيفهم كل سور القرآن
التي بعدها.

في وضع الفاتحة بداية المصحف إشارة إلى أنه ينبغي البدء
بالأهم قبل المهم، وبالأصول قبل الفروع، فسورة الفاتحة
شافية لأمراض القلوب والأبدان، وحاجة القلوب إليها أكد،
وسر الشفاء فيها خشوع قلبك واليقين فيه.





حمد الله هو الذي تدور عليه السورة، بل أول الخلق ابتدئ بالحمد وآخر ما ينتهي إليه الخلق إلى الحمد، وخلق السماوات والأرض بالحمد، وحين ينتهي الجزاء يكون إليه الحمد، ولهذا صار الحمد أعظم ما يفتح به الكتاب العظيم.

هي ملخص مطالب الله الرحمن الرحيم من الإنسان، وهي تسمى سورة الكنز؛ لأنها خفيفة اللفظ، لكنها ثمينة النتائج لمن سعى في امتثالها.

هي الواجبة في الصلوات، فلا صلاة إلا بها، وهي الكافية، تكفي من غيرها ولا يكفي غيرها عنها.

هي الوافية لأنها وافية بما في القرآن من المعاني، وتفي بالمعرفة الضرورية للإنسان، وتفي بحسن عاقبته وبطيب حياته.

هي سورة الحمد لأنها ابتدأت بالحمد.

وهي السبع المثاني لأنها تنثني في كل صلاة^(١).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب (رقم ٤٤٧٤).





وهي فاتحة الكتاب كما سماها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١) وهي مفتوح كل خير.

هي الشافية؛ لأنها إذا أمثلت شفت الإنسانية من كل أدوائها الحسية والمعنوية، كما أنها رقية، كما دل ذلك الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

هي سورة الصلاة، فكلها ثناء على الله، فأنت تثني بها على الله تعالى فيثني بها عليك، فالسورة تعلم المرء كيف يتعامل مع الله، فإن أراد الدعاء فيستحب له أن يثني على الله أولاً، فيبدأ بحمد الله تعالى وتمجيده، ثم الصلاة على رسوله، وبعد ذلك يدعو بما يشاء، فإن دعاءه يستجاب بإذن الله.

هي أم القرآن^(٣) ففيها اثبات التوحيد واثبات الرساله

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات (رقم ٧٥٦) ومسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، باب: ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب (رقم ٢٢٧٦) ومسلم في كتاب السلام، باب: جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار (رقم ٢٢٠١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [سورة الحجر: آية ٨٧] (رقم ٤٧١٤).





بنتيجتها وانقسام الناس فيها، المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالين، والحديث عن اليوم الآخر.

هي سورة المناجاة، إن تلاوة سورة الفاتحة تفتح لك أعظم أبواب الشرف، وهو الحوار مع الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** حيث إن أعلى وصف وأشرف وصف في الوجود هو وصف العبودية **«قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»** (١) فأنت تخاطب بلفظ العبودية ٨ مرات، فتستشعر أنك كلما قرأت سورة الفاتحة فإن الله تعالى يجيبك، فأى شرف هذا! حوار يكرر رب العزة ذكرك فيه بالعبودية ويكافئك بالإجابة، مع أنك لم تأت بجديد، ولم تفضل بشيء من عندك.

هي أول سورة في القرآن على اسم فاعل، ولا يوجد فتح إلا **بعد اغلاق**، يعني أنها في أول سور القرآن، والبداية هي الفتح، هي مفاتيح لقلبك المغلق، هي مفاتيح لفهم القرآن حيث يقرؤها المسلم في كل ركعة من صلاته.

هي بحق سورة العبودية؛ في أولها توسل بالحمد والثناء

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).





والتمجيد لمستحق العبودية **جَلَّ وَعَلَا** وفي أوسطها توسل وإقرار واعتراف بالعبودية، وفي آخرها وصف لطريق العبودية، وسؤال وطلب تحقيقه، والهداية إلى الاستقامة على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربّه له؛ كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

هي سورة الترية، تعلمك الشكر على نعمه، والثناء عليه بكل ما له من أسماء وصفات ومحامد، ثم تريك على الرحمة. وتكرر أربع مرات لتعلم أن دينك رحمة، وأن حياتك لا تستقيم إلا بالرحمة، لولا رحمته سبقت غضبه لعذبنا جميعاً.

وقد أذن الله لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تكرر في كل ركعات الصلوات، وإلا فالأصل أن المصلي مشروع له أن ينوع في القرآن، بمعنى ألا يعتاد قراءة سور بعينها حتى لا يقرأ بسهوه أو يذهب خشوعه.

إنها نور، ونزلت خاصة بالنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون سائر الأنبياء، ونزل بالبشارة بها ملك، ووعد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإعطاء





ما احتوى عليه معناها من فضائل وخصائص له ولأمته^(١).

ومن أسرارها أنه لا تصح الصلاة إلا بها للتسهيل على العباد، ويكفي في شرفها أنه لا يكاد يوجد مسلم في الدنيا إلا ويحفظها، حتى إن الإنسان أول ما يدخل في الإسلام وينطق بالشهادتين يحفظ سورة الفاتحة قبل غيرها؛ حتى تصح بها صلاته، ولو أن الإنسان اقتصر عليها في الصلاة لصحت صلاته، فما زاد عنها فهو نفل مستحب وليس بواجب.

السورة تفتح ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم تكرر ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في الآية الثانية، إذ أن الرحمة بارزة في أسماء الله الحسنى، فأول ما يتعرف به الإنسان إلى ربه أن يتعرف إليه برحمته وإحسانه، فيحبه قبل الرجاء والخوف، ثم إن الحب مع الرجاء يتفوق على شعور الخوف.

فيها المقاصد الإجمالية الثلاثة في القرآن؛ العقيدة والعبادة والأخلاق، فهي اشتملت على الدين كله، فالقرآن يدعو أولاً للعقيدة الصحيحة، أي أن تؤمن بالله تعالى إيماناً صحيحاً

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل فاتحة الكتاب (رقم ٨٠٦).





على أسس سليمة. وهو ثانيًا يدعو للعبادة الصحيحة وإقامة الشعائر، وفي نفس الوقت هو منهج للأخلاق وللحياة شامل ومتكامل.

والقرآن كله بعد سورة الفاتحة إما أن يكون مبيِّنًا للعقائد، مفسَّرًا معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ ومعنى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ ومعنى ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ أو مبيِّنًا كيف نعبد الله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ أو يخبر عن المناهج في الأرض وطرق الظالمين والهالكين وطرق الناجين، فنجد آيات كثيرة تشرح معنى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾.

في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ معرفة الله بإثبات التوحيد وإثبات الرسالة، وإظهار نعم الله بمحبة الخالق لخلقه والخلق لخالقهم، فتتذكر رحمة الله بعباده التي شملت الدنيا والآخرة، فتطلب منه الرحمة وتخضع في صلاتك.

في سورة الفاتحة معرفة الإنسان ربه ومعرفة نفسه؛ فإنه إذا كان هناك ربٌ فلا بد من مربوب، وإذا كان هنا راحمٌ فلا بد من





وقفات تدبرية و فوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



مرحوم، وإذا كان هناك مالكٌ فلا بد من مملوك، وإذا كان هناك عبد فلا بد من معبودٍ، وإذا كان هناك هادٍ فلا بد من مهديٍّ، وإذا كان هناك مُنعم فلا بد من مُنعم عليه، وإذا كان هناك مغضوب عليه فلا بد من غاضبٍ، وإذا كان هناك ضالٌّ فلا بد من مُضِلٍّ.

فيها أصل أسماء الله الحسنى، مع التركيز على أسماء الله (الرب، الرحمن، الرحيم) فأصل علاقة ربنا عزَّ وجلَّ بالبشر هي الرحمة، ولذلك ورد قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ مرتين، وفي ذكر هذه الأسماء بعد الحمد وإيقاع الحمد على مضمونها يدل على أنه تعالى محمود في إلهيته وربوبيته وفي رحمانيته وفي ملكه، ولأنه إله محمود ورب محمود ورحمن محمود وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال.

فيها ذكر يوم الدين بأهمية الاستعداد للحياة الآخرة، من الزجر والخوف من النار، وجزاء الكافرين، ومشاهد القيامة في القرآن، فتذكر يوم القيامة وأهواله، وتساءل ربك أن يخفف عنك تعب ذلك اليوم، فتخشع في صلاتك.

فيها إرشاد الخلق إلى حمد الله والثناء عليه وتمجيده، وعبادته، والاستعانة به في جميع أمورهم الدنيوية والدينية،





وإخلاص العمل لله، وإعلان البراءة من حولهم وقوتهم، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم المؤدي بسالكه إلى سعادة الدارين.

فيها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لخصت لك الإخلاص وآيات المجاهدة والأوامر والنواهي، حيث تشعر عند كلمة (إِيَّاكَ) أن الإخلاص يتجدد في قلبك كل يوم، وأنه لا معبود إلا الله ولا معين إلا الله، فتخشع في صلاتك.

فيها تقديم العبادة على الاستعانة، لأننا ياربنا نعبدك لا على غرض أنفسنا (مرادك من الله بالاستعانة) بل على مراد الله منك (بالعبادة) عندما تؤثر مراد الله على مراد نفسك هنا تحقق غاية وجودك.

فيها ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هي الشريعة كلها، فتشمل جميع آيات الدعوة إلى الاستقامة، والأحكام الشرعية الموصلة للجنة، والأعمال الصالحة الموصلة لها، مع طلب الصحبة الصالحة، فتشعر أنه ليس لك من يهديك إلى الاستقامة في الدنيا ويثبتك عليها إلا الله تعالى، وليس لك من يهديك إلى صراط الآخرة ويثبت قدمك عليه لتجتازه إلا الله



تعالى، فيزيد قربك منه ورجاؤك لرحمته و خوفك من عذابه فتخشع في صلاتك.

فيها إثبات الرسل والرسالات والوحي، إذ كيف يحمد العباد، وكيف يعبدونه وفق ما شرع، وكيف لهم بمعرفة طريق المنعم عليهم والحذر من أهل الضلال والزيغ، إلا عن طريق الرسل والكتب، وكيف يجازون على ذلك إلا بعد البيان وإقامة الحجّة.

فيها ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ والإخبار عما كان للسابقين، وقصص أهل الحق في القرآن من النبيين وأتباعهم، فيستشرف قلبك منازلهم وصحبتهم وتطلب القدوة بهم.

فيها ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ملخص لقصص ومآلات أهل الزيغ والكفر والشرك والضلال، فتستشعر طلب السلامة وحسن الختام.

تعلمك الفاتحة أن تداوم وتستمر في مجاهدتك وعبادتك لتحصل على الثمرة (أدومها وإن قل) وتركز في باب من أبواب العبادة، وتدعو ربك أن تستمر في السير على هذا الطريق وتثبت عليه حتى تلقاه.





تعلمك الفاتحة روح المبادرة، بادر بالعبادة قبل طلب الاستعانة والهداية ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ [سورة الكهف: آية ١٤] ثم جاءت ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة الكهف: آية ١٤] أقبل أنت أولاً، ابدأ أنت أولاً، وعندما تخطو في الطريق تجد الهداية والفتح.

تعلمك الفاتحة مجاهدة نفسك بقدر معرفة الله و حبه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿وَبِقَدْرِ الْاِقتِدارِ وَالتفويضِ إلى الله و تمجيدِهِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿وَبِقَدْرِ حالِ القلبِ وَالإخلاصِ وَالعِبادَةِ﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

تعلمك السورة كيف تدعو بأن تشني و تعترف بالفضل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و تطلب العون مفتقراً إليه و إلى ما عنده، ثم يأتي الدور ل طرح مسألتك بدعاء الله بالهداية ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ و قد وضعت قبل أسباب الإجابة.

الفاتحة فيها الإقرار والاعتراف لله تعالى بالكمال من جميع الوجوه، وبالفضل والإنعام والإحسان محبة وتعظيمًا،





والإقرار من العبد على نفسه بفقره وضعفه وحاجته إلى ربه في أمور دينه ودنياه ذلاً وافتقاراً، وهذا من أجل أنواع العبادة لله وأفضلها.

الفاتحة تدعو إلى تحقيق كمال العبودية لله تعالى، فيتقدم بين يدي ربه بالحمد والثناء والتمجيد، ثم يتوجه إليه بالإقرار بالعبودية له وحده سائلاً إياه المعونه عليها، ولما كان لا بد في العبودية من إخلاص لله تعالى، وموافقة لشرعه ليقوم بها، ومن استعانة ليقوى عليها، توجه إلى دعاء وسؤال الله تعالى الهداية إلى الصراط المستقيم، فهو سبيل النجاة والفوز برضا الله وجنته، فهو صراط أهل النعمة المطلقة، وأن يجنبه طرق أهل الزيغ والضلال واتباع الهوى.

الفاتحة تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة؛ فتوحيد الأسماء والصفات دل على ذلك قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فإثبات الحمد الكامل له يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جلاله، التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وأما توحيد الربوبية فيؤخذ من قوله: **﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** فهو المتفرد بالخلق





والتدبير والنعم، وأما توحيد الإلوهية؛ أفراد الله بالعبادة، ففي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فلا نعبد إلا إياك حباً وخوفاً ورجاء وطاعة تعظيماً، ولا نستعين إلا بك توكلًا وثقة واعتمادًا، ويسمى أيضًا توحيد العبادة.

سورة الفاتحة أولها رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها

نعمة، والنعمة الحقيقية تكون بالرحمة والهداية، ونقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه كان إذا صلى الفجر مكث في مجلسه يقرأ الفاتحة ويردها حتى طلوع الشمس أو ارتفاع النهار، فهي أساس الذكر، وتأملها يبعث على تحقيق الدين كله الذي يريده الله.

فيها من الأسرار والعلوم والهداية والخير ما لاحد له،

والسورة تطلق على المنزلة العظيمة العالية، كسور تحيط بجمال معانيها، بما يعني أنك لتجتاز السور يجب أن يفتح لك، لذا وجب تكرارها مرات عديدة في اليوم والليلة، كمن يطرق الباب؛ هل يكتفي بمرة واحدة!

بدأت الفاتحة بالتعريف بالله عزَّجَلَّ بنعمته وبرحمته وبملكه

وبمجده، وأعطت أربع مفاتيح لفتوح وسعادة الدارين: مفتاح





الذكر والثناء والأذكار الموظفة والاستغفار الدائم في ﴿أَحْمَدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ و مفتاح التبتل والعبادة ومحبة فضائل
الأعمال في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ و مفتاح التوسل والدعاء في ﴿وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ و مفتاح علو الهمة في طلب الحق في ﴿أَهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾.

فيها تعليم العباد بالتوجه إلى بارئهم بتقديم الوسائل التي
شرعها لهم ربهم، والتقرب إليه بخالص النيات لتثبيتهم على
شرائع الإسلام، بالتمسك بالعروة الوثقى وحبل الله المتين،
الذي تمسك به عباده المنعم عليهم من النبيين والصدقيين
والشهداء والصالحين، والذي طرفه من عند الله وطرفه الآخر
في جنات النعيم.

فيها أطيب وأشرف الذكر بحمد الله وشكره والثناء عليه
وتمجيده بأسمائه وصفاته، فإن أعظم ما تقرب به الإنسان إلى
ربه سبحانه هو ذكره والثناء عليه متذكراً معانيها بقلبه، فقد
أدى أفضل الأعمال، فذكر الله خير من سائر الأعمال، خير من
الصدقة والجهاد، فما طلب الله الاستكثار من شيء مثله وما
جاءت (كثيراً) في القرآن إلا مع الذكر.





فيها أجل المطالب العالية في التعبد القلبي: فالمطلب الأول هو كمال محبة الرب، والمطلب الثاني هو كمال الرغبة والرجاء بالرحمة، والمطلب الثالث كمال الرهبة والخوف. واشتملت على أصول تحصيل الهداية، بالحمد والثناء والتمجيد، والعبودية، والذل والخضوع والاستعانة، والدعاء، ثم جاء بعدها طلب الهداية والتوفيق إلى الصراط المستقيم.

اشتملت الفاتحة على الرحمة، وهي الكلمة الأولى، ثم جاء تعالى بأخص أنواعها، وهي الهداية، ثم جاء بأخص أنواع الهداية، وهي النعمة، فلا يمكن أن يهتدي حتى يرحمه الله، ولا يمكن أن ينعم عليه حتى يهديه الله.

اشتملت على التعليم والتعريف بالمعبود ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مقدمة حتى تعرف الله، فإذا عرفت فاعبده ثم خذ العون من الله، فإن الله لو لم يعنك لما استطعت أن تعبده «لَنْ تَطَاعَ إِلَّا بِإِذْنِكَ»^(١) «وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ»^(٢) فإن لم يوفقه ولم يعنه فما أذن الله له.

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٦٤ رقم ٨٠٢٧).

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات (رقم ٣٤٠١)



أراد الله منا أن نجعل قراءتها ديدننا في ليلنا ونهارنا، ندعوه ونتوسل إليه بفهم وحضور قلب لمعانيها، لتكون معنا في كل أحوالنا وأوقاتنا، لكي تحدث تغيير في حياتنا. جمعت معاني الوحي ومقاصد الشرع، فمن تدبرها حق التدبر فتحت له جميع مراتب الهداية، كل على حسب إيمانه.

تدبر سورة الفاتحة يوصل لمرتبة الإحسان، حيث إن أول طريق لإحسان العبادة هو أن يجمع المرء قلبه حال قراءة الفاتحة.

إذا تأملت وجدت أول السورة افتتحت بأمر ثلاثة: بذكر الإلهية، والربوبية، والملك، وهذه الأمور الثلاثة موجودة في آخر سورة في القرآن ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ١﴾ الربوبية ﴿مَلِكِ النَّاسِ ٢﴾ الملك ﴿إِلَهِ النَّاسِ ٣﴾ الألوهية، فهذه ثلاثة أوصاف لرَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَكَرَهَا مجموعة في موضع واحد في أول القرآن، ثم ذَكَرَهَا مجموعة في موضع واحد في آخر ما يَطْرُقُ سمعك من القرآن؛ فينبغي أن يُعلم أن العليم الخبير لم يجمع بينهما في أول القرآن ثم في آخره إِلَّا لِمَا يَعْلَمُ من شِدَّةِ حاجة العباد إلى معرفتها.





بربوبية العالمين يطمئن قلب المؤمن إلى هذا الرب
 المعبود، وتسكن نفسه إليه، وتنقاد إليه بكليته، فربه الذي
 يعبده هو رب العالمين، فمن يخرج من ربوبيته وقهره وتسلطه!
 وهو أيضاً مالك ليوم الدين، يملك ذلك اليوم الذي فيه الكل
 خاضع، فهو يملك الدنيا والآخرة، وهو رحمن رحيم، نتقلب
 في ألطافه، ونقبل عليه، ونسأله رحمته، ونتوجه إليه بكليتنا،
 وتتعلق قلوبنا به دون ما سواه، فهو رحيم بنا، وهو ربنا، وهو
 مالكننا، إلى من نتوجه إن لم نتوجه إليه تَبَارَكَ وَتَعَالَى فهو الذي
 خلقنا وأوجدنا، وهو الذي هدانا، وهو الذي أخبرنا أنه رحمن
 رحيم.

الكلمة التي تدور حولها الفاتحة هي ﴿أَهْدِنَا﴾ فالأمة
 كلها حين تصلي تطلب وتدعو بالهداية، فكأن كل المصلين
 يدعون لبعضهم وقد توسلوا إلى الله تعالى بأنواع التوحيد من
 أجل طلب الهداية.

نلاحظ أن كلمة ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قد تكررت مرتين
 في السورة، في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وفي قوله
 تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وهذا يشعرنا برحمة ربنا التي



شملت الدنيا والآخرة، فلفظ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الأول جاء بعد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ فالعالمين والدنيا كلها تسير برحمة ربنا عزَّجَلَّ و﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢﴾ جاء بعدها ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٤﴾ للإشارة أن اليوم الآخر أيضًا يسير برحمة الله، فهذه السورة تطمئن المرء بأن الأصل في الكون هو رحمة الله، وأن أصل علاقة الله بعباده هي الرحمة.

في السورة التي تليها (البقرة) أولها ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢﴾ ووصفهم بأوصافهم، ثم كرر أنهم ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وكأن فيها إجابة لسؤال الداعي بطلب الهداية ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ في الفاتحة أن وُصفت له أوصاف المهتدين في أوائل سورة البقرة ثم أن الصنف الثاني ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقابلهم في سورة الفاتحة ﴿الضَّالِّينَ﴾ والصنف الثالث هم المنافقون ﴿الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ لأنهم عرفوا الحق ويتكبرون الصراط المستقيم.

ولأن جوهر الدين عبودية واستعانة، فلا يكتمل لك دينك إلا إذا كملتهما، فمقامك عند الله بقدر افتقارك إليه ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾ مقدمة للاعتراف بين يدي الله بالافتقار





وسؤال الهداية «وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(١) ماذا تريد يا عبدي؟ يلقيه أن يدعو بطلب الهداية ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١).

ولما كان أوَّلُ الفاتحة مشتملاً على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، وآخرها مشتملاً على الذمّ للمعرضين عن الإيمان به والإقرار بطاعته، دلّ ذلك على أن مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الإقبال على الله عزَّجَلَّ ومطلع الآفات ورأس المخالفات هو الإعراض عنه سبحانه والبعُد عن طاعته.

من تحقق معاني الفاتحة علماً ومعرفة وعملاً وحالاً وواقعاً فقد فاز بالكمال البشري بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجاتهم عن عوام المتعبدين.

هي سورة تشمل معاني الكمال الإلهي، ويستحضر حمد ربه تعالى وكمال فضله ونعمته بهذا القرآن العظيم، ويتعرف على أسماء الله وأوصافه الدالة على كماله وجلاله، فيزداد معرفة بربه ومحبة وقرباً، ثم هو يعترف لربه بحق العبودية، فيشتاق أن يرتقي في شرف مدارجها ويستشرف مراتب

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).





المقربين، وهو في هذا يطلب العون من ربه استحضاراً للضعفه
وتقصيره، وحاجته لربه في كل أحواله، خاصة لتحقيق عبوديته
كما يحب ويرضى.

اشتملت على المطالب العالية في أصول العبادات القلبية

الثلاثة، فلا توجد عبادة إلا على المطالب الثلاثة: محبة الرب

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾  باعتقادك أن الله رب

العالمين، هذا مفتاح كمال المحبة، لأن النفوس جبلت على

من أحسن إليها، ولا أحد أحسن إلى البشر أكثر من ربهَا **عَزَّوَجَلَّ**

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [سورة البقرة: آية ٢١] الثاني

كمال الرغبة والرجاء فيما عنده، والثالث كمال الرهبة.

ولأنه سبحانه يعلم ضعفك، ويعلم شدة حاجتك في

دياك، أمرك بالصلاة كقناة تواصل معه، وعلمك كيف يكون

الحوار بالفاتحة، فالبداية حمد وثناء وتمجيد، ثم إقرار وإعلان

وتحقيق عبوديتك له واستعانتك به، ثم يأتي السؤال وطلب

الهداية والتوفيق إلى الجنة، وقد وعدك الإجابة متى كنت

حاضر القلب مخلص القصد منكسر القلب خاشعاً مخبتاً.





والمراد بالصلاة في قوله عَزَّجَلَّ في الحديث القدسي: **«قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»** ^(١) هي الفاتحة، فهي الركن الركين في الصلاة ولا تصح إلا بها، فهي جوهر الصلاة ولبها، وهي قسمان: قسم لله عَزَّجَلَّ وقسم للعبد، ثلاث آيات ونصف خالصة لله، وثلاث آيات ونصف خالصة للعبد، نصف يقرأ في الأرض ونصف يقرأ من فوق سبع سموات، استشعر.

❁ لقد تناولت سورة الفاتحة أربعة محاور رئيسية:

■ (١) المحور العقدي:

الاعتقاد بالله واختصاصه جل شأنه باستغراق الشاء والحمد، كجزء من التعريف به جلت عظمته، واعتقاد أنه المنعم المجازي الذي إليه المرجع والمعاد، فلا شريك له ولا نظير للمستحق للعبادة، وتجسد هذا المحور في قوله تعالى **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** ^(٢) **﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾** ^(٣) **﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾** ^(٤) فهو سبحانه مصدر كل أمر يستوجب الحمد، فهو الخالق المبدئ المعيد المربي بكل الآلاء والنعم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).





■ (٢) المحور العبادي :

لقد دعت السورة الكريمة إلى توجيه العباد بعبادتهم إلى الله وحده **عَزَّوَجَلَّ** وأنه لا مألوه بحق سواه، فكان ذلك اجتثاثاً لجذور الشرك والوثنية التي كانت قد ضربت أطناها في أرجاء المعمورة، وإرساء لتوحيد الألوهية الذي يعد أهم ما جاء من أجله الدين، وهذا المحور يتمثل في قوله تعالى: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ .

■ (٣) المحور المنهجي :

وهو الذي بينت السورة من خلاله سبيل السعادة الذي هو منهج النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، من استمسك به حاز نعم الدنيا والآخرة، ومن زاغ عنه باء بالخسران فيهما، وتمثل هذا المحور في قوله تعالى: ﴿ **أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ .

■ (٤) المحور الاعتباري أو القصصي :

وعن طريقه أوضحت السورة الكريمة مآل الموحدين الواقفين عند حدود الله تعالى الآخذين بأحكام شرعه، وعاقبة المشركين المتعددين لحدود الله تعالى النابذين لأحكام دينه،





وجاء هذا المحور ملخصاً في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

إن سعادة الإنسان التامة تتوقف على استكمال قوته العلمية والعملية الإرادية، واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتهما، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها. واستكمال القوة العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد، والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعة، وشهوذاً لمتته عليه وتقصيره هو في أداء حقه.

إن استكمال هاتين القوتين لا يكون إلا بمعونته، فهو يهديه إلى الصراط المستقيم الذي هدى إليه أوليائه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط، أما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وأما بفساد في قوته العملية فيوجب له الغضب.

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) يتضمّن الأصل الأوّل، وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.





وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾ يتضمّن معرفة الطريق الموصلة اليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته على عبادته.

وقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ يتضمّن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهداية الله تعالى له.

وقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧﴾ يتضمّن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظّه من الهداية، وحظّه منها على قدر حظّه من الرحمة، فعاد الأمر كلّه إلى نعمته ورحمته. والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيّته، فلا يكون إلا رحيمًا منعمًا، وذلك من موجبات ألوهيّته، فهو الإله الحق وإن جحده الجاحدون وعدل به المشركون. فمن تحقّق بمعاني الفاتحة





وقفات تدبرية وفوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



علمًا ومعرفة وعملاً وحالاً فقد فاز من كماله بأوفر نصيب،
وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجاتهم عن
عوام المتعبدين، والله المستعان.



القسم الأول

الثناء والتوسل



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿١﴾

أبتديء مستعيناً بالله

الله هو جامعٌ لمعاني أسماء الله الحسنی كلها، دال عليها بالاجمال، ومُتضمَّن لكمال الجلال والجمال، الدال على الألوهية، وهي العبادة مع غاية المحبة والتعظيم والخضوع.

الله الذي تأله القلوب تعظيمًا وخضوعًا، وتحن إليه بالمحبة والشوق والحنين إلى رؤيته، وتأنس بذكره، وتفزع إليه في الحوائج والنوائب «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشُّوقَ إِلَى لِقَائِكَ»^(١).

الله هو الذي تحار فيه العقول فلا تحيط به علمًا ولا تدرك له من الكنه والحقيقة إلا ما بيّن سبحانه في كتابه، وهي قد تحار في بعض مخلوقاته فكيف بذاته عزَّجَلَّ فالعقل يرتد حسيّرًا كسيّرًا عن إدراك ذات الله عزَّجَلَّ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ﴿١١٠﴾ [سورة طه: آية ١١٠].

(١) أخرجه النسائي في كتاب السهو (رقم ١٣٠٥).



الله هو الإله المعبود المستحق للعبادة دون سواه ﴿هَلْ تَعَلَّمْ لَهُ سَمِيًّا﴾ [سورة مريم: آية ٦٥] فالعقل والفكر يَحْتَارَانِ فِي حَقَائِقِ صِفَاتِهِ وَفِي عَجِيبِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَالْقُلُوبُ لَا تَسْكُنُ إِلَّا بِذِكْرِهِ، وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ مَلْجَأٌ يَفْزَعُونَ فِي النَوَائِبِ إِلَّا إِلَيْهِ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ مَنْ أَرْتَفَعَ بِذَاتِهِ مَسْتَوِيًّا عَلَى عَرْشِهِ، فَهُوَ وَحْدَهُ سَبْحَانَهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلتَّأَلُّهِ وَالتَّعَبُّدِ وَالتَّنَسُّكِ.

الله هو الاسم الذي يتضمن توحيد الله بأفعال العبد من الأعمال القلبية، من الخشية والتوكل، والأفعال الظاهرة كالصلاة والذبح والصدقة وغيرها.

الله هو الاسم المستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمن بأن له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

لو تفكَّرَ قَلْبُ الْعَبْدِ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ لِاسْمِ (الله) لأَوْجِبَتْ لَهُ السُّكُونُ إِلَى مَوْلَاهُ وَاللَّجُوءُ إِلَيْهِ، وَوُقُوفُ الْعَقْلِ عَنِ التَّفَكِيرِ فِي ذَاتِهِ إِلَى تَدَبُّرِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَالنَّظَرُ فِي عَظِيمِ مَخْلُوقَاتِهِ.

تَكَادُ الْقُلُوبُ الْمُؤْمِنَةُ أَنْ تَتَفَطَّرَ مِنْ فَرَطِ مَحَبَّتِهَا لَهُ وَتَعَلَّقَهَا بِهِ؛ مِمَّا يَثْمُرُ أُنْسَ هَذِهِ الْقُلُوبِ بِهِ وَحَدَهُ لَا بِسِوَاهِ، فَلَا يَفْتَرُ





الجسد عن خِدْمَتِهِ، ولا يَسْأَمُ اللسان عن ذِكْرِهِ، ويُوجِبُ خضوعَ العبد لمولاه والذل والانقياد على التمام، وتقديم رضاه على كلِّ ما سواه.

كيف يُحصى جلال هذا الاسم الجليل العظيم، الذي له من كل كمال أكمله وأعلاه وأوسعه وأعظمه، فما ذكر هذا الاسم في قليل إلا كثره، ولا عند خوف إلا أزاله، ولا عند كرب إلا كشفه، ولا عند هم إلا فرّجه، ولا عند ضيق إلا وسعه، ولا تعلق به ضعيف إلا قواه، ولا ذليل إلا أعزه، ولا فقير إلا أغناه، به تستنزل البركات، وتجاب الدعوات، وترفع الدرجات، وتستجلب الحسنات، وتستدفع السيئات، فلا أعظم من جلال (الله) تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

عندما يعلم المؤمن بأن الله تعالى متصف بهذا الاسم العظيم ينبغي له أن يقوم بحقه، من التعبد الذي هو كمال الحب مع كمال الذل والتعظيم، فلا شيء أطيب للعبد ولا أذل ولا أهنأ ولا أنعم لعيشه ولقلبه من محبته تعالى، ودوام ذكره في لسانه وقلبه، والسعي إلى مرضاته، والخشوع والخضوع له ظاهراً وباطناً.





الرحمن ذو الرحمة الواسعة بجميع الخلق، وهو اسم مشتق من صفة الرحمة القائمة به سبحانه، وهو متصف بها في نفسه، والرحيم ذو الرحمة الواصلة، فهو سبحانه موصل الرحمة إلى خلقه، وهي للمؤمنون خاصة، فالرحمن وصف، والرحيم فعل، حيث وسعت رحمته الأشياء وشملت كل الأحياء، فكل ما هم فيه من نعم فمن آثار رحمته.

الله والرحمن: تستشعر عظمة الله تعالى وتستقر في نفسك سعة رحمة الله تعالى بأن قرن اسمه بنعمة الرحمة الواسعة، فتفاءل واطمئن، وأحسن الظن بربك في عسرك بأن يفرج الله عنك، وفي يسرك بأن يديم عليك رحمته ونعمته.

الرحمن: الرحمة الواسعة ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^ع فسأكتبها للذين ينقون ﴿[سورة الأعراف: آية ١٥٦] فتدل على

الامتلاء بالصفة، لكن لا تدل على ديمومتها، (نعسان فإذا نام ذهب نعاسه) فرحمة الله بأهل الدنيا من جنس المخلوقات جميعها تزول عنهم بقيام الساعة، لأن يوم القيامة غضب عام.

الرحيم ذو الرحمة الواصلة إلى عباده، وهي فعله تعالى الذي يفعله متى شاء، ومن وصلت له الرحمة استمرت معه في





الدنيا والآخرة ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: آية ٤٣] ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الطور: آية ٢٨] ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [سورة يس: آية ٥٨] وهي تدل على الديمومة حتى في الآخرة ﴿لَا يَخْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [سورة الأنبياء: آية ١٠٣] ﴿نُزُلًا مِّنْ عَفْوٍ رَّحِيمٍ﴾ [سورة فصلت: آية ٣٢].

والبداء بالبسملة فيه طلب العون من الله وحده رجاء البركة منه، ودلالة على كمال ألوهية الله عزَّجَلَّ باتصافه بالرحمة، ولذا يبدأ المسلم بها في كل شئون حياته استعانة وتوكلاً.

الباء للمصاحبة والاستعانة، أي أستصحب جلال أسماء الله طيلة الحياة، فجلال أسمائك في قلبي، وهي استعانة بالله أن يفتح قلبك لفهم أسرار السورة، واستعانة بالله أن يفتح لك أنوارها المليئة بالرحمات لتملاء قلبك بالإيمان واليقين فلا تخرج إلا بكنوزها.

وإذا أقبلت لتتفاعل مع أي شيء في الكون فإنك تبدأ باسم الله الذي سخر لك هذا الشيء، لأنك لا سيطرة لك على جنس من أجناس الكون لينفعل لك أو ليخدمك بقدرتك، فلا قدرة لك ولا علم لك، فأنت حين تقبل عليه تتذكر هبة الله لك،





وتذكر اسمه على كل فعل تقوم به، تذكر نعمة الله عليك في التسخير، فذكرك لاسمه قد ضمن لك ثواب تذكرك لنعمة الله.

بسم الله كذلك ترفع الحياء عن العاصي لله حين يباشر عملاً، فلا تمنعك معصيتك له أن تبدأ كل عمل باسمه، فقد جاء بالحيشية، فهو رحمن رحيم، أي أن تعيش حياتك بتجليات الرحمة، وحين تبدأ بقولك (بسم الله الرحمن الرحيم) عملاً لغاية ونتيجة، فإذا أثمرت الغاية كان مناسباً أن تستقبل هذه النتيجة بقولك: الحمد لله.

الله والرحمن هما أعمدة أسماء الله الحسنى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [سورة الإسراء: آية ١١٠] فأسماء الجلال ترجع إلى الله مما يثير كمال الخوف، وأسماء الجمال ترجع إلى الرحمن مما يثير كمال الرجاء، و«رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»^(١) فأسماء الله لا تخرج عن الجلال والجمال ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [سورة السجدة: آية ١٦] أي بأسمائه.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٥٦] (رقم ٧٤٢٢) ومسلم في كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (رقم ٢٧٥١).





فجميع أسماء الله تعالى منطوية في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فمن قالها فقد ذكر الله بجميع أسمائه، فالرحمن من صفة الرحمة، وهي تقتضي الرجاء، ولفظ الجلالة (الله) من صفة الألوهية، وهي تقتضي الخوف.

فعندما نبدأ بالبسملة يتبين لنا أن جميع أعمالنا وتصرفاتنا ينبغي أن تبنى على أساسين اثنين؛ خوف منه وطمع فيما عنده، وكلا الأساسين لا يوجدان إلا بعد معرفة به وكمال محبته في القلب، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته تعلق قلبه به محبة وخوفاً ورجاء، والتأله هو كمال الحب والشوق والأنس.

وكلما زاد الحب في الخالق زاد الخوف منه وزاد الرجاء فيه، لأن المحبوب إن أعرض خاف المحب من إعراضه، وإن أقبل طمع المحب في إقباله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة: آية ١٦٥].

ورحمة الله تعالى لخلقه نوعان: رحمة لجميع الخلق المؤمنين والكافرين وسائر المخلوقات فرحمته وسعت كل شيء، والثاني رحمة خاصة بالمؤمنين، وهي الأعلى والأعلى؛ إذ بها يكتمل نور الإيمان ويتدرج بها العبد في منازل الجنان.





وقد بدأت بالبسملة هنا، وهي ليست من الفاتحة على الصحيح، لأن المصلي يشرع له قراءتها، ولكونها آية مستقلة من القرآن الكريم، ولأن هذا أول ورود لها في المصحف.



﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ 

«حَمْدِنِي عَبْدِي»^(١).

هذه هي روعة الاستهلال، وحسن الثناء على خالق الكون ومدبر أمره، الذي خلق ورزق، ولطف بعموم رحمته وعميم فضله، وإليه يمضي الخلاق للحساب جزاء وفاقاً. وحقيقة الحمد الثناء عليه سبحانه بِذِكْرِ نَعْوَتِهِ الْجَلِيلَةِ وَأَفْعَالِهِ الْجَمِيلَةِ، المثمر لِحَبِّ الْقَلْبِ وَخُضُوعِهِ.

الحمد لله لظهور سلطانه ولاستحقاقه لجلاله وجماله، وله الشكر لو فور إحسانه ولجزيل نواله وعزيز أفضاله، فحمده سبحانه لنفسه العلية هو من صفات كماله، وحمد الخلق له

(١) جزء من حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الذي أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).





هو على إنعامه وعلى جلاله وجمال استحقاقه لصفات العلو،
واستجابته لنعوت العزّ والسمو.

وهذا الاستهلال فيه قطع بأنه لا بد من أن يوجد حمد في
هذا الكون بشكل فطري لتستقبل بها البشرية سيل النعم التي
تفيض على الخلائق، وما ينفعل لهم من اسباب مادية وحيوان
ونبات سخرت لهم ولمنفعتهم ولمعيشتهم.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (ال) تدل على الاستغراق بأن هذا الحمد
موجه بشكل حصري مستغرق لله **عَزَّجَلَّ** بكل أنواع المحامد،
ما علمنا منها وما لم نعلم، له وحده لا شريك له، ويصح أن
تضع مكانها (كل).

**والسلام في (الله) هنا تدل على الاستحقاق لجميع أوجه
الحمد وأنواعه،** ولا يستحقها على هذا الوجه العظيم الخالص
الشامل إلا الله، وكل ما جاء بعد الحمد فهي حشيات له، فهو
الله، وهو رب العالمين، وهو الرحمن، وهو الرحيم، وهو
مالك يوم الدين، فهو مستحق الحمد وأهله لما له من جلال
وجمال وكمال سبحانه وبحمده.





الحمد هو الثناء التام بالجميل والوصف الجامع بالكمال المطلق، وهو الاعتراف لله بالتقصير والفقر والحاجة إليه، وشكره على نعمته وإحسانه إلى عباده.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ استحقاقاً واختصاصاً، فهو تعالى مستحق لكل أجناس المحامد، وكل أنواع الثناء الكامل من جميع الوجوه لذاته، ولربوبيته الكاملة على خلقه، ولأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلى خلقه ونعمه وهدايته وقضائه وقدره.

ابتداء الله تعالى السورة بحمد نفسه يعلمنا أنه لن يبلغ كمال حمده تعالى ولا يحصى ثناء عليه إلا هو تعالى ليربي عباده على كيفية حمده «لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ» (١).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو الشعور الذي يُستقبل بالفكر ويستقر في الوجدان ويفيض به قلب المؤمن، ثم يشع في كل جوارحه فتتزع فعلاً وشكراً، فالنعمة لكل كيانك ﴿نَفْسَعِرُّ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فََمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [سورة الزمر: آية ٢٣] ثم

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (رقم ٤٨٦).





وقفات تدبرية و فوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



تتسع الدائرة إلى خارجك، فتكون حركة الحياة منسجمة بما استقر في عقيدتك، فلا يصدر منك شيء إلا بمنهج الله الذي أقره.

الله هو المستحق للحمد بذاته لأنه (الله) لفضائله وكمالاته،

وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، وإن لم تتعد الفضائل إليك فذاته **عَزَّجَلَّ** تستحق الحمد قبل خلقه للخلق ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: آية ١١٧] يستحق أن يلتفت إليه خلقه بالإعجاب والثناء والتسبيح والتحميد؛ لأنه أبداع شيئاً على غير مثال، فكيف إذا نالك من هذه الذات الإلهية شيء بسيال الربوبية من النعم التي سبقت وجودك، والنعم الحالية التي أنت فيها، أو التي تنتظر بالرحمة في الآخرة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا﴾ [سورة الأعراف: آية ٤٣].

هو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فإياك أن يخطر ببالك أن عالمًا من العوالم التي تخدمك - أيها الإنسان - سينكث عن خدمتك، فناصرتهم بيده لا رب لهم سواه ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [سورة المؤمنون: آية ٩١] فهي ربوبية رحمة لا جبروت.



﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لأنه الله في كمالاته، ولأنه رب العالمين لفيض الإحسان منه لخلقه، فإن وجودك ابتداءً قبل وجودك ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [سورة الإنسان: آية ١] ليس إلا فيضًا من النعمة الإلهية التي تستجيش الشكر والحمد والثناء، وتفيض على الجوارح لتنفعل مع الوجود انفعال الحب والرحمة مع من حولك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو الاعتراف بالفضل، وهو أن تثني على الله وتجلّه، وتشكره على عطاياه، وتذكره وتمجده بجميع أسمائه، لأن من يُحمد لا يُحمد إلا على كمال، وعلى أوصاف الجمال والجلال، ويثبت لله كل أسمائه ما عرف منها وما لم يعرف.

افتتاح الكتاب العزيز بالحمد فيه دلالة على أن هذه الكلمة هي أجمع كلمة في وصف الكمال لله عَزَّجَلَّ وأن الحمد من أكمل أنواع الذكر، وأن أول ما يتلقاه العباد من كلام ربهم هي كلمة الحمد، فيستقر ذلك في نفوسهم، وأن السورة مبنية عليه من حيث دلالتها على كمال الله تعالى الدال على استحقاقه للعبودية، وإرشاد العباد إلى أن يبدأوا بحمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده في سائر أحوالهم.





﴿الْحَمْدُ﴾ هو الإخبار عن إحسان ومحاسن المحمود على وجه الحب له، ومحاسنه تعالى إمّا قائمة بذاته وإمّا ظاهرة في مخلوقاته.

﴿الْحَمْدُ﴾ هو وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، فإن لم يكن مع المحبة والتعظيم كان نفاقاً ورياءً وكذباً وتزلفاً ومدحاً مذموماً. فهو الثناء التام لله عزَّجَلَّ في ذاته وصفاته وأفعاله؛ لأنه خالق الخلق كلهم ومالكهم ومدبر شؤونهم ومربيهم بنعمه العامة والخاصة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو الإخبار عنه بصفات كماله عزَّجَلَّ مع محبته والرضا به، فلا يكون المحبُّ الساكت حامداً ولا المثني بلا محبة حامداً حتى تجتمع له المحبة والثناء.

﴿الْحَمْدُ﴾ أفضل من التسبيح، بل يقوم مقام التسبيح لما تضمنه الحمد من معنى التسبيح، وهو تنزيه الله عزَّجَلَّ وزيادة عليه، بإثبات كل كمال للرب عزَّجَلَّ فعلاً ووصفاً واسماً وتنزيهاً عن كل سوء وعيب ونقص، ولأن التسبيح تنزيه، فغالباً يأتي مقروناً إما بالحمد أو باسم من أسماء الله العلي العظيم «سبحان الله وبحمده» وكذلك فإن الحمد معناه الثناء على الله





والشكر له، وهذا تنزيه له واعتراف بأنه أهل لأن ينزهه ويعظم ويشنى عليه، لأنه لا يكون مستحقاً للثناء إلا إذا كان منزهاً عن النقص، فحمد الحامد لله تسييح له.

﴿الْحَمْدُ﴾ **أعمّ المعارف وأوسع العلوم**، وهو متضمّن لجميع صفات كماله ونعوت جلاله **عَزَّجَلَّ** مع محبته والخضوع له مستلزم لها، كما هو متضمّن لحِكْمَتِهِ في جميع أفعاله وأوامره، وهو سبحانه المحمود على كلِّ حال، وعلى كلِّ ما خلقه وشرّعه، فمن امتلأ قلبه بالحمد امتلأ ميزانه به يوم لقاء مولاه، قال **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ**»^(١) فاللهم لك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، ولك الحمد كله حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

وقد بدأ بوصف الألوهية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قبل تخصيص وصف عطاء الربوبية **﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** مع أن الأخير أكثر تعلقاً بمصلحة العباد وأكمل في الإحسان إليهم، دليل على أن

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: فضل الوضوء (رقم ٢٢٣).





الألوهية تكليف، وهي في حقيقتها نعمة تستحق الحمد بمنهج تستقيم به حياته ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾ [سورة الرحمن: آية ١-٢] لأنها تستوجب الجزاء في الآخرة، وهي امتداد لحياتك الحقيقية في الآخرة التي لا تفوتك النعمة ولا تفوتها أنت بالموت.

كلمة الحمد لله هي سر الكون كله ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ [الإسراء: ٤٤] لو فقهت وعلمت، ففي الضراء «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» وفي السراء «الحمد لله على كل حال» والحمد هي في مجموعها كلمة تحمل معنى العبودية والحب والثناء والشكر والعرفان بالقلب واللسان والجوارح، ومن يوفق إلى ذلك يستشعر فضل الله عليه بالهداية إلى معرفته وتوحيده.

أصدق وأحق كلمة قالها العباد هي ﴿الحمد لله﴾ وهي أفضل الدعاء، وهي تملأ الميزان، وهو سبحانه المستحق للحمد كله، والأولى به على أعلى صفات الكمال، وقد كان الحمد وذكر الثناء والمجد لله تعالى بعد الرفع من الركوع تأكيد وتكرار ما ورد في الفاتحة.





إن كمال الحمد يتضمن التوحيد، فهو أولى بأن يعبد؛ لأنه
 أولى أن يحمد، وحيث يستلزم الحمد الإقرار بكمال حكمة
 الله **عَزَّجَلَّ** في خلق الخلق وكمال رحمته بإرسال الرسل وإنزال
 الكتب، فالحمد يستلزم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً
 رسول الله.

والحمد يشمل أيضاً الشناء بالمحاسن العليا وإثبات
صفات الكمال والجلال المطلق، والفضل والإحسان، والنعم
 الظاهرة والباطنة له تعالى، محبة وتعظيمًا، فهو الإخبار عن
 محاسن المحمود مع المحبة له، والمحاسن تشمل الكمال
 الإلهي في ذاته وصفاته وأفعاله، وأثرها في ربوبيته لخلقه
 وإنعامه عليهم، فهو المحمود سبحانه لألوهيته وربوبيته،
 وهو المحمود لرحمته، فتكرار الحمد هنا يسمى (ثناء) وهو
 المحمود لملكه يوم الدين، فتكرار الحمد مرة ثالثة يسمى
 مجداً **«حَمِدَنِي عَبْدِي ... أَتْنِي عَلَيَّ عَبْدِي ... مَجَّدَنِي عَبْدِي»**.

إن أنواع المحامد كثيرة لا تحصى، ولو استحضرها العبد
 وهو يقرأ **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** لفتح له أنواع
 وأبواب من محبة الله ومن تمجيده وتعظيمه وحسن الشناء عليه،





وقفات تدبرية و فوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



ولفتح له علوم وعبادات قلبية لا يعلمها إلا من عاشها وعرفها
(لك الحمد بمحامدك كلها ما علمنا منها وما لم نعلم).

وهو عَزَّجَلَّ محمود من وجوه لا تحصى وجوانب لا
تستقصى، له أسماء وأوصاف ومدائح وثناء لا يعلمها ملك
مقرب ولا نبي مرسل، تقصر بلاغة الواصفين عن إدراك
كنهها، لم تتحرك بها الخواطر، ولا هجست بها الضمائر، ولا
لاحت لمتوسم، ولا سنحت في فكره، فهو تعالى محمود في
الكون كله دائماً بدوامه، خالدًا مع خلوده، حمداً لا يزول أبداً
في الدنيا والآخرة.

والحمد يدور على خمسة معان: ❁

١. أن يحمد الله على ربوبيته.
٢. وأن يحمد الله على ألوهيته.
٣. وأن يحمد على أسمائه وصفاته.
٤. وأن يحمد الله جَلَّ وَعَلَا على خلقه وإبداعه الكائنات.
٥. وأن يحمد جَلَّ وَعَلَا على شرعة وكتابه.





﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ تضمنت توحيد الله بالعبادة، وهو في الحقيقة معنى العبادة، فالعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها: حب كامل وذل تام «أَبْوَاءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبْوَاءُ لَكَ بِذَنْبِي»^(١).

لحظ القلب إلى النعمة ومشاهدة المنة يورث هذا شكراً وحباً لولي النعم والإحسان وتعظيماً له ورضاً عنه.

مطالعة عيب النفس والتقصير في العمل والذنب التي تورث ذلاً وانكساراً وخضوعاً له سبحانه والافتقار والتوبة في كل وقت وألا يرى نفسه إلا مفلساً.

﴿الْحَمْدُ﴾ فيه معنى الشكر، بل هو أعم منه؛ لأنه يتضمن المدح والثناء في حال السراء والضراء، والشكر يكون عند النعمة الظاهرة فقط، فالحمد لله تعالى يكون على جميع الأحوال، بخلاف الشكر فالله عَزَّوَجَلَّ يحمد على كل حال حتى عند نزول المصيبة ووقوع الضرر والسوء.

(١) جزء من حديث سيد الاستغفار الذي أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب: أفضل الاستغفار (رقم ٦٣٠٦).





﴿الْحَمْدُ﴾ يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر **محاسنه**، سواء كان إحساناً إلى الحامد أو لم يكن، والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور، فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر، لأنه يكون على المحاسن والإحسان، فإن الله يحمد على ما له من الأسماء الحسنى ويحمد على ما خلق، أما الشكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام؛ فهو أخص من الحمد من هذا الوجه.

﴿الْحَمْدُ﴾ فيه معنى الاعتراف بالجميل، وفي ذلك تبرؤ من الإنكار والجحود، وهو الذنب الأول لإبليس، لأنه إقرار من العبد بتقصيره وفقره وحاجته، واعتراف لله **جَلَّ وَعَلَا** بالكمال والفضل والنعمة والإحسان، وضرورته إلى ربه **عَزَّجَلَّ** وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة، وضرورة كاملة إلى ربه **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر، إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته، وهذا من أعظم ألوان العبادة، ولا يدخل العبد على ربه من بابٍ أوسع، وأفضل من باب الذلُّ له والانكسار بين يديه.





﴿الْحَمْدُ﴾ خاص باللسان، ولهذا جعل الله الحمد قولاً
﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [سورة الأعراف: آية ٤٣] ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ
يَنْخِذْ وَلَدًا﴾ [سورة الإسراء: آية ١١١] والشكر يكون باليد واللسان
والقلب ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سورة سبأ: آية ١٣] فالقول الكريم
شكر، والنية الحسنة شكر، وجعل الله الحمد عبادة الكون
﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الزمر: آية ٧٥] والحمد يدخل فيه الثناء
والشكر، فبداية كل شيء (بسم الله) ونهاية كل شيء (الحمد
لله).

وكل شيء يسبح بحمده، وجعل الله تسبيح عباده بحمده
لكونه رب العالمين تسبيح المحبة، ولكونه الرحمن الرحيم،
وتسبيح الخوف بمالك يوم الدين، والحمد لله لأنه رب
العالمين، فلو أن للعالم رباً آخر لفسد ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾
[سورة المؤمنون: آية ٩١] الكون كله يديره رب واحد .

والله تعالى يستحق الحمد على أن هدانا لصيغة الحمد
التي يرتضيها، ففيها كل الثناء على الله كما وصف نفسه، فلم
يترك ذلك للناس على اختلاف قدراتهم العقلية والفكرية وعدم
تكافؤ الفرص، فرحم الله من لا يقدر بأن قيد من يقدر أن يحمده





بهذه الصفة فقد أخرج الله عبده من الحيرة في صيغة الحمد، ولا يمكن لأي بيان بشري أن يلم بكلمات المحمود فهي لا تتناهى، ولا تستطيع أن تعبر بقدراتك البيانية «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ»^(١).

وحمد الله موجب لرحمته ولا يصرف لغير الله، وقد أذن الله بصرف الشكر دون الحمد ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ﴾ [سورة لقمان: آية ١٤] فكان الحمد له وحده بينما الشكر له ولخلقه.

والحمد رتبة إيمانية، فأنت هنا تعقد مع ربك عهداً للدخول في ابتلاء الحمد لينظر هل تنجح فيه، فحينما تصبر على الابتلاء من البأساء أو الضراء، وحين تثبت في حال الاستغناء فلا تزيغ ولا تطغى، فأنت حامد حقاً.

والرب هو السيد المطاع المالك المتصرف، الذي لا نظير له في سؤدده، وله الخلق والملك والتدبير، وهو يتولى تربية خلقه وإصلاحهم فيما يغدق عليهم من نعمه، وإنه رب للكون كله، وإن كل هذه المخلوقات لا تستغني عن إنعامه وسيادته طرفة عين في

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (رقم ٤٨٦).





وقفات تدبرية وفوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



ذات أنفسها وفيما يحيط بها، قلب ينبض، وهواء يتنفس، وأنعم ظاهرة وباطنة، وهذه ليست إلا لله سبحانه، ومن مقتضى هذه الربوبية ألا يخلق الخلق سدى، وألا يتركهم هملاً، بل يعرفهم بكل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وعطاء الربوبية يشمل جنس الإنسان مؤمنهم وكافرهم وغيرهم من المخلوقات.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [سورة الزمر: آية ٨]

﴿دَعَا رَبَّهُ﴾ والرب هو السيد والمُدبر والمُتصرف في شؤون المرئيين، والمالك لهم الذي يُربِّيهم بصنوف النعم بأنواعها المتعلقة بتربية الأبدان وبترية الأرواح بالوحي، فهذا فيه إثبات الوحي والنبوة، وإرسال الرسل، عليهم الصلاة والسلام، إنه يُرسل إليهم رسلاً ويُنزل عليهم كتباً، فالترية تكون للأرواح وللأبدان، وللأرواح بالوحي والهدى، وللأبدان بما يغذوها به من أسباب كونية أودعها الله مما في الأرض حلالاً طيباً ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: آية ١٦٨] فهو تعالى المربي جميع العالمين، وهم من سوى الله، بخلقه إياهم، وإعداده لهم بحواس التعلم، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة التي لو فقدوها لم يمكنهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى.





وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة، فالعامة هي خلقه للمخلوقين مؤمنهم وكافرهم، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا. والخاصة تربيته لأوليائه المؤمنين به، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحققتها تربية التوفيق لكل خير والعصمة عن كل شر.

ولعل هذا المعنى هو السر في أن هذا الاسم العظيم الكبير الشأن عزيز في قلوب ونفوس الأنبياء، فكان أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب لتضمنه معاني الجمال والجلال والكمال، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة، فدل قوله: ﴿رَبِّ أَعْلَمِيتُ﴾ على انفراده بالخلق والتدبير، والنعمة، وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه بكل وجه واعتبار.

و(الرب) هي الملاذ لنا منذ أن أخذ الله من ذرية آدم العهد على الربوبية ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [سورة الأعراف: آية ١٧٢] وهي الإلف الأول قبل الإيجاد، وهي الإلف المصاحب؛ لأن الرب هو المتولي الإيجاد والتربية، ورب كل شيء ومليكه، فيدعو مسبب الأسباب بالاضطرار، ويدل اسمُ (الربِّ) أيضاً على



إصلاحه لأمر عباده بجميل رعايته وحسن كفايته.

والرب هو القيوم قام بنفسه؛ وقام به كل شيء، فهو قائم
على كل نفس بخيرها وشرها، قد استوى على عرشه، وتفرد
بتدبير ملكه، فالتدبير كله بيديه، ومصير الأمور كلها إليه،
فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده بالعطاء والمنع، والخفض
والرفع، والإحياء والإماتة، والتوبة والعزل، والقبض والبسط،
وكشف الكروب وإغاثة المهوفين وإجابة المضطرين ﴿يَسْأَلُهُ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمن: آية ٢٩].

والعالمون: كل ما سوى الله تعالى من أجناس الموجودات،
لاشتماله على العقلاء والجمادات من العوالم المتقدمة
والمتأخرة من كل جنس في السماء والارض وما بينهما.

وهو رب كل شيء ومليكه، رب السماوات ومن فيهن،
ورب الأرض ومن فيهن، ورب ما بينهن، مما نعلم ومما
لا نعلم، فلا تخرج عن ملكوته وقدرته، فكلهم مربوبون
مقهورون، وربوبيته منزهة عن كل النقائص والعيوب،
متضمنة لكل كمال وتعظيم، وهذه الرعاية بالربوبية لا تنقطع
أبدًا ولا تفترو ولا تغيب، والله سبحانه لم يخلق الكون ثم يتركه





هملاً، بل يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربّيه، وكل العوالم والخلائق تُحفظ وتُتعهد برعاية الله رب العالمين، فليطمئن المؤمن المكلف إلى أن هذه العوالم لا تخرج عن خدمته، فهي في رعاية الله الدائمة وربوبيته القائمة.

لفظة ﴿الْعَالَمِينَ﴾ تدل على معنى لطيف، فالفاتحة

وهي أول سور القرآن قد ابتدأت بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ بينما آخر سورة في القرآن سورة الناس قد انتهت بقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ﴿٦﴾ فالمصحف ابتدأ بكلمة العالمين وختم بكلمة الناس، وكأن المعنى أن هذا القرآن ليس للمسلمين فقط بل إن هذا القرآن هو لهداية البشرية كلها.

وربوية الله تعالى أعظم دليل على ألوهيته وأنه المستحق

للعباد دون سواه، وهي دليل على كمال غناه، وتماهم فقرهم إليه من كل وجه، وشمول هذه الربوية للعالمين جميعاً، فتوحيد الربوية يستلزم توحيد الإلهية، فإذا قلت: (لا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا مُحيي إلا الله، ولا نافع إلا الله، ولا مُعطي إلا الله، ولا ضار إلا الله) فما الحاجة لغيره أن يُعبد أو أن



وقفات تدبرية و فوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



يُقصد! هذا يقتضي أن توجه إليه بالعبادة، فإذا كان هو الذي يملك النفع والضر، فالعبادة والخضوع ينبغي أن توجه إليه، فهذا معنى أن توحيد الربوبية يستلزم ويقتضي توحيد الإلهية.

ولو استعشر المرء ضعفه وحاجته إلى ربوبية مولاه في كل شيء لأورثه ذلك الحب والخضوع لله رب العالمين مالك الملك، فالتذلل والثناء لله يشعرك بالعزة ويزداد السمو والرفعة في نفسك، فتشعر بلذة العبودية لله، وهي الزاد الحقيقي للحرية من ذل المخلوقين.

والله عَزَّوَجَلَّ يربي عباده بما يجري عليهم من الأقدار، فحياة المؤمن منطوية على ابتلاء يمتحن فيها إذا استقام على أمر الله، وتأديب إذا خالف منهج الله، ويعلم أن الله يسوق له مصالحة من حيث لا يحتسب، فيقبل تربية الله له ويرضى بها، ويحمده أن عجلها له في الدنيا ولم يؤخرها له في الآخرة، وأن لطف به إذ لم يضاعف مصابه.





﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣﴾ . 

«أَنْتَى عَلَيَّ عَبْدِي»^(١) عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله والتعرض لأسبابها.

لَمَّا جَاء وَصَفَ اللهُ سَبْحَانَهُ نَفْسَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، التي تعني أنه السيّد المالك المعبود، الذي له مطلق التصرف في عباده، والتي قد يفهم منها معنى الجبروت والقهر - جاء وصفه بالرحمة بعدها لينبسط أمل العبد في العفو إن زلّ، ويقوى رجاءه إن هفأ، وأيضاً لما وصف الله تعالى نفسه بالربوبية بين أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم، كجلب منفعة أو دفع مضرة، وإنما هي لعموم رحمته، وشمول إحسانه.

أَمَّا اسْمَاهُ سَبْحَانَهُ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣﴾ فجمعا صفات الإحسان والجود، والبر والحنان، والمنة والرأفة واللطف، وكُرت الصفة لعمومها وثبوت تعلقها، فنعمة الله بربوبيته لخلقه وإفضاله عليهم جارية على وجه الرحمة والرفق واللين واللطف، فبرحمته أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها

(١) جزء من حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الذي أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).





هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم، وأنعم عليهم، وبرحمته وضع الرحمة بين عباده ليتراحموا بها، وبرحمته رزق عباده وخلق لهم ما يصلح دنياهم، وهداهم إلى ما يصلح آخراهم، وقدّر بينهم ما تتم به معاشهم.

﴿الرَّحْمَنُ﴾ أوسع أسمائه، والرحمة أوسع صفاته، قال

تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه: آية ٥] فاستوى بأوسع صفاته على أوسع مخلوقاته، وكتب لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كتابًا، فهو عنده فوق عرشه: «أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ»^(١) وكان هذا الكتاب العظيم الشأن كالعهد منه سبحانه للخليفة كلُّها بالرحمة لهم، والعفو عنهم، والصفح عنهم، والمغفرة والتجاوز، والستر والإمهال، والحلم والأناة.

تأمل: جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فهذه الرحمة التي تشعر بها هي ١٪ من رحمة الله.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: {ورحمتي وسعت كل شيء} (رقم ٧٤٢٢) ومسلم في كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (رقم ٢٧٥١).





انظر: هؤلاء الخلائق من الأدميين، وأنواع الحيوانات، والطيور، والهوام، كل ذلك إنما يشترك برحمة واحدة قد وُزعت عليهم! يا الله! ما أرحمك ما أرحمك! سبحانك وبحمدك.

وهنا هي الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي، فتشعر أن ظلال الرحمة تحوطك وأنت تصلي من كل اتجاه، وأنت تستشعر الثناء والدعاء: (يارب يا رحمن يا رحيم، أدخلني في رحمتك التي وسعت كل شيء، فلا غنى لي عنها طرفة عين) فالدنيا دار هموم وبلايا وآلامها وتقلباتها التي لا تنتهي، فتتلهف نفسك وتتوق لرحمة الرحمن الرحيم.

ورحمة الله عَزَّجَلَّ سبقت غضبه وهو في كتاب عنده موضوع على العرش، وهذا الكتاب العظيم الشأن، كما هو العهد منه سبحانه، للخلقة كلهم بالرحمة لهم، والعفو عنهم والمغفرة والتجاوز، والستر والإمهال والحلم، فكان قيام العالم العلوي والسفلي بمضمون هذا الكتاب الذي لولاه لكان للخلق شأن آخر. فرحمته عمّت حتى الكافر، لكن تلك الرحمة جسدية





وقفات تدبرية و فوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



بدنية دنيوية، من رزق وطعام وشراب ومسكن ومنكح وعافية بدن، إلخ، أما المؤمنون فرحمتهم أخص من هذه وأعظم لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية أخرى.

وبدأ بالرحمن لأنه الاسم العظيم الخاص به تعالى عام متضمن لصفات الاحسان والجود والبر لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، بتيسير أمورهم في معيشتهم وحياتهم، فتفعل لهم الأسباب بأمره ورحمته لهم، وإنعامه عليهم بالعقل، ومن رحمته أن أقام عليهم الحجة وأعذرهم بالرسول. واسم الرحيم من آثار فعله في خلقه خاص بالمؤمنين ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: آية ٤٣] وقد ذكرت كلمة الرحمن في القرآن ٥٧ مره وذكرت الرحيم ١١٤ مرة، أي ضعفها تمامًا، فسبحان الله جلت حكمته.

قرن تعالى بين ربوبيته ورحمته ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** لأن ذكر الربوبية والرحمة يؤدي إلى الحب، فالقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وأعظم ما يستدر العبد به رحمة ربه أن ينكسر بين يديه، وأن يظهر عبوديته له وذله وعجزه وفقره، فذكر الربوبية بعد الرحمة يشعر بالحب





فهو سبحانه يربي عباده برحمته قبل غضبه **«رحمتي سبقت غضبي»**^(١) فهو محبوب لربوبيته ولرحمته، والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، فشمّل جميع العالمين برحمته.

وصلة الرحمة والرعاية التي تستجيش الحمد والشاء

هي صلة تقوم على الطمأنينة وتنبض بالمودة، فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية. والرحمة هبة من الله، ورحمات الخلائق فيما بينهم هي فيض من رحمة الله، ولذا جاء الحمد سابقاً لنعمة الرحمة، وكل رحمة صدرت منك أو وقعت عليك فهي هبة من الله **عَزَّوَجَلَّ** ولا يجد المؤمن أمام هذه الهبة إلا أن يحمد الله ويرضى عن الله، فهو سبيل محبته.

والرحمة هي باب الله الأول، من طرقه فتح له، ومن

أعرض نودي عليه، فإن لم يصغ تحسر عليه ﴿يَحْسَرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ [سورة يس: آية ٣٠] خلقهم الله **عَزَّوَجَلَّ** بالرحمة، ورزقهم بالرحمة، وهداهم بالرحمة، حتى إذا ظلوا أو كفروا ناداهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: **﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾** [سورة الأعراف: آية ١٥٦] (رقم ٧٤٢٢) ومسلم في كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (رقم ٢٧٥١).



بالرحمة وفتح لهم أبواب الرحمة ليتوبوا، ولم يجعل لأحد اليأس من رحمته، وهو أوسع أبواب الوصول إليه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٥٦] ونبي الرحمة سابق للعذاب ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: آية ١٥] وكذلك المصائب والآلام التي تنزل بالمؤمنين هي رسائل رحمة حتى يعودوا أو يتأدبوا ويتضرعوا.

ولو تأمل الإنسان حاله مع ربه، كيف يشكر غيره ويعصي أمره ويواقع نهيه، ثم هو سبحانه يعمهم ببره وإحسانه، يهديهم ويبتليهم بالخير والشر ويمهلهم، لأوجب ذلك في قلبه توبة وحياء ومزيد حب وتعلق ورجاء.

فهل نجد هذه المحبة في قلوبنا (الوجد والشعور والإحساس) والمحب لربه لا يستطيع أن يجد نفسه حيث نهاه، فهو يستحي أكثر من أن يخاف لأنه محب ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٧٥] لأن أسماء الله تعالى الدالة على الرحمة سابقة إلى قلبه.

والجمع بين الرحمن والرحيم يدل على كمال رحمته، فهو المتصف بالرحمة ذاتاً وفعلاً وأثراً في المخلوقين، وأعظم





ما تستدر به الرحمه أن ينكسر العبد بين يدي ربه ويظهر عبوديته وعجزه وضعفه وفقره إلى رحمته، وهو محسن الظن به.

وكل ما ترى في الكون من آثار رحمة الله، وهذا الكتاب العزيز الذي بين أيدينا من آثار رحمة الله، والتكاليف في حقيقتها من رحمة الله، وكل ما تراه وما تسمعه من فضل الله، وشرعه وتقديره في كونه فهو من آثار رحمة الله، فلا تعلم أين رحمة الله في المرض والابتلاءات، فقد يكون ادخرها الله **عَزَّوَجَلَّ** لك جبلاً من الحسنات فتفرح بهذا الابتلاء، قد تتعثر قدمك في حياتك مما قد تكرهه فيكون من آثار رحمة الله بك لو أنك تبصر ما في الغيب، كذلك هي أقدار الله، نحن نعيش في كل ثانية وما في أجسادنا وما يحيط بنا من حولنا كلها من آثار رحمة الله الرحيم بهذه التشريعات كلها رحمة وحكمة ولطف وعون من الله العظيم.

فهذه الأسماء الثلاثة: الله والرب والرحمن، هي أصول الأسماء الحسنی، فاسم الله متضمن لصفات الألوهية؛ حق الله على العباد وتوحيد الله وإفراده بأفعالهم، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية؛ حق العباد على الله وإفراد الله تعالى




وقفات تدبرية و فوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



بأفعاله كالخلق والملك والتدبير، واسم الرحمن متضمن
 لصفات الجود والبر والإحسان، والرحمة سبب واصل بين
 الرب وعباده، فقرن سبحانه رحمته هنا برؤيته للعالمين،
 فقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ
 ﴿٣﴾﴾ فشمل جميع الخلائق برحمته؛ فوسعت رحمته كلَّ
 شيءٍ، ووسعت نعمته كلَّ حيٍّ، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه،
 فبين خلقه وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة،
 وهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه، وكل من في السماوات
 والأرض عبد له وفي قبضته وقهره.



﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ 

«مَجْدَنِي عَبْدِي»^(١) التمجيد بصفات الكبرياء والعظمة
 والملك.

الدين في هذا السياق معناه الجزاء بالعدل، فهو مجازاة

(١) جزء من حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدني نصفين» الذي أخرجه
 مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).





المكلفين من جنس كسبهم، فيثاب المطيع المحسن ويعاقب المسيء العاصي، ويقتص للمظلوم من الظالم.

فلما وصف تعالى نفسه بالرحمة، وكان هذا قد يؤدّي بالعبد إلى غلبة الرجاء عليه، نبّه بصفة الملك ليوم الدين ليكون العبد من عمله على وجل، وليعلم أنّ لعمله يومًا تظهر له فيه ثمرته من خير وشر، وأيضًا لما كانت الربوبية لا تتم إلا بالملك المفيد للعزة، المقرون بالهيبة المثمرة للبطش والقهر ونفوذ الأمر - أتبع ذلك بقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ترهيبًا من سطوات مجده.

هذا هو التمجيد في أعظم صورته، وذلك أنه مالك يوم الدين (وتأمل العظمة) والمالك هو من اتصف بصفة الملك والسلطان والقدرة التي من آثارها يأمر وينهى ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، ويوم الدين هو يوم القيامة يوم يدان كل الخلق ويحاسبون فيه بأعمالهم خيرها وشرها، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي هناك أحد غيره **جَلَّ وَعَلَا** ولا يتكلم أحد إلا بإذنه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ



صَوَابًا (٣٨) ﴿سورة النبأ: آية ٣٨﴾ في الآية تمجيد وتعظيم للرب **جَلَّ وَعَلَا** حيث يتجلى فيه كمال ملكه وعدله وتفرد به بالملك يومئذ، وانقطاع أملاك الخلائق بلا دعوى من أحد، حيث يجتمع الخلائق ويتجددون من ملك وتصرف.

ذكر أنه عَزَّجَلَّ ملك يوم الدين، بعد كونه ربًّا للعالمين، بيان أنه تعالى رب لهم في الدنيا والآخرة، وأن مقتضى حمده ورحمته أن يجازي الناس بعدله ويوفي كل عمله، فتصرُّفه في ملكه دائرٌ بين العدل والإحسان، والحكمة والمصلحة والرحمة، ولا يخرج تصرُّفه عن ذلك.

فيه إثبات للبعث واليوم الآخر ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ ﴿سورة غافر: آية ١٦﴾ وإثبات المعاد، وفيه إثبات أيضًا الرسل والرسالات والكتب؛ لأن يوم المعاد والجزاء والحساب، فالله لا يُعذب الناس إلا إذا أقام عليهم الحجة، بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وفي دنيا الأسباب يمد الله من يشاء بأسباب الملك، لكن في يوم الدين يزول الملك والمالك ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١١)﴾ [سورة الانفطار: آية ١٩] وهو **عَزَّجَلَّ مالك**





أمور هذا اليوم كله زمنًا ومكانًا ﴿لَا يُجْلِبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٨٧].

ويطلق اليوم مقابل النهار ﴿سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سورة سبأ: آية ١٨] لأن الناس قبل القيامة في ليل تشملهم قبل ذلك غيبوبة الموت، فكأنه استيقاظ نهار، وهو سبحانه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] وشأنه لا ينتهي لا ليلاً ولا نهارًا، ومن أسرار الفلك أنه في أي لحظة يبدأ نهار ويبدأ يوم، حتى أن أهل الجنة يقيلون في الجنة ذلك اليوم في آخر نهاره ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [سورة الفرقان: آية ٢٤].

والمؤمن يقرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [سورة الفاتحة: آية ٤] فإن فاتته جزاء في الدنيا فيطمئن أن جزاءه في الآخرة لن يفوته، وهو أربى فائدة ﴿وَإِنَّمَا تُوفَّوْنَ أَجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٨٥] فإن كنت تفرح بمن يعطيك فانت من أهل الدنيا، وإن كنت تفرح بمن يأخذ منك كنت من أهل الآخرة.

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ سُمِّيَ بذلك لأنه يوم الجزاء بالعدل ويوم القهر، وهو يوم لا تنفع فيه إلا الطاعة، يوم يقوم الناس من قبورهم، ويقوم الأشهاد من الرسل والملائكة، يوم العدل



الحقيقي، يوم إدانة الخلائق ومجازاتهم ومحاسبتهم بأعمالهم، وخصّه بالملك لتفرّده سبحانه فيه بالحُكْم، ولأنه اليوم الحَقُّ وما قبله كساعة، ولأنه الغاية وأيام الدنيا مراحل إليه، ومعناه عند جميع المفسرون ما فسره الله تعالى به في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ [سورة الانفطار: آية ١٩].

خص ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ بالملك لخطورته وعظمه، ولأنه ختام لأيام يظهر فيه ملك الله الكامل، ففي الدنيا قد يوجد من يملك شيئاً مع كونه خاضعاً لملك الله، أما يوم القيامة فلا ملك ولا مالك إلا الله **عَزَّوَجَلَّ**. وأيضاً خص يوم الدين بالملك مع أنه سبحانه مالك كل الأيام، وقد تقدم الإخبار أنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، إلا لشأن عظيم ولمسألة كبيرة، بسبب معرفتها دخل الجنة من دخلها، وبسبب الجهل بها دخل النار من دخلها.

من فهم اسم المالك (الملك) وفقهه علم أن كل مخلوق في هذا الكون خاضع وطائع لأمره، ومهما يملكوا من مناصب وأموال فهم في الحقيقة عاجزون عن التصرف الكامل ﴿فَبُهِتَ





الَّذِي كَفَرَ ﴿البقرة: ٢٥٨﴾ يملكهم ويقهرهم ربهم، فيولد العزة في قلب المؤمن، ويتحقق توحيد الذل لله، وهو من أركان العبودية.

والمصلي حين يقرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يحاسب نفسه في محطات الصلوات التي يقف فيها بين يدي ربه ليستشعر عظمة مالك يوم الدين، فيعيد النظر فيما قدمه بين الصلاتين من قول أو عمل، ليدرك في أي كفتي الميزان توازن، وليدرك أن لا توفيق ولا فلاح إلا من وفقه الرحمن الرحيم، وأخذ بناصيته إلى الخير والطاعة وثبته عليها، وأن من سلك سبيل الغي واتبع هواه وانساق وراء أهل الزيغ والضلال فنهايتته إلى غضب الله وعذابه.

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم يجازى الناس بأعمالهم، يوم الجزاء بالعدل في الحقوق من بعضهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولهذا يجد المؤمن أثراً بليغاً في نفسه وفي كل تصرفاته في شؤون الحياة، سلوكاً ومعاملة وإنصافاً مع كل أحد، فيحسن العمل والاستعداد والاستقامة، ويتجنب حقوق الأدميين؛ لأنه يعلم يقيناً أن الموعد هو اليوم العظيم، يوم الدين، يوم الجزاء ﴿يَوْمَ





يَوْمُ النَّاسِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ [المطففين: ٦] ﴿يَوْمَ إِذْ يَقُولُ اللَّهُ دِينَهُمْ أَلْحَقْ﴾ [سورة النور: آية ٢٥] أي جزاء أعمالهم بالعدل.

هو اليوم الذي يستحق أن يعمل له وأن يحسب له كل حساب، لا أيام الدنيا، بل ولا الدنيا كلها، لذا نجد القرآن الكريم كثيراً ما يقرن بين الإيمان بالله تعالى والإيمان بهذا اليوم؛ لأنه أكبر حافز على الاستعداد بالأعمال الصالحة.

إذا كانت نعم الله تعالى تستحق الحمد، فإن ملكه ليوم الدين محمداً يستحق عليها الحمد الكثير، فهذه الملكية نعمة كبرى، فهي التي تحمي حق كل ضعيف أو مظلوم في هذه الدنيا، فهي من تمام وكمال ملكه سبحانه، فإنما يظلم من نقص ملكه ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [سورة غافر: آية ١٧].

إن عقيدة الإيمان بيوم الدين، اليوم الآخر، مفرق طرق بين رق الشهوات والنزوات، وانطلاقة النفس من رق شهواتها إلى رحاب العبودية لله، ومفترق طرق بين الخضوع لتصورات الدنيا وقيمها وموازينها والتعلق بالقيم الربانية.





ولا تستقيم حياة البشر على منهج الله ما لم يؤمنوا بيوم
البعث والنشور، وما لم تطمئن قلوبهم إلى أن جزاءهم على
الأرض ليس هو نصيبهم الأخير، وما لم يثق المؤمن بأن له
حياة أخرى تستحق أن يجاهد لها، وأن يضحّي لنصرة الحقّ
والخير معتمداً على العوض الذي يلقاه فيها.

ومن يتقن في قلبه حقيقة ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ لا يرى لضرورات
الدنيا الزائلة تحكماً فيه، فيستعلي عليها، فيبعث في نفس
المؤمن الطمأنينة، فعمله الصالح لن يذهب سدى ﴿وَإِنَّمَا
تُؤَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٨٥] فلا يستبد
به القلق على تحقيق جزاء سعيه في عمره القصير المحدود،
وفي مجال الأرض المحصور، فيخلصه لوجه الله طمأنينة وثقة
بوعد الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله، في الأرض أو في الدار
الآخرة، في طمأنينة لله، وفي ثقة بالخير، وفي إصرار على الحق،
وفي سعة وسماحة و يقين.

ولا يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور
ولا خلق ولا سلوك ولا عمل، فهما صنفان مختلفان من البشر،
وطبيعتان مختلفتان لا تلتقيان في الأرض في عمل، ولا تلتقيان



في الآخرة في جزاء، وهذا هو مفرق الطرق بينهما.

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ أمل الصابرين والمحتسين الذين جاهدوا أنفسهم على ترك المعاصي والسيئات وصبروا عن الشهوات في الدنيا، كانوا يقولون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطًا﴾ [سورة الإنسان: آية ١٠] فموعدهم يوم الدين يوم الجزاء والحساب، تأتيهم البشارة من الرحمن ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شُرَّكَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرًا وَسُرُورًا﴾ [سورة الإنسان: آية ١١].

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ عزاء المظلومين والمحرومين، يوم تجتمع الخصوم، وهناك مالك يوم الدين ناصر المظلومين والمستضعفين، وهنا يصبر المسلم ويرضى ويسلم وتهدأ آلامه وجراحه ودموعه، ويحتمل الظلم الذي يقاسيه والظلم الذي يعيشه في الدنيا لأنه يعلم أنه هناك منصور ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾ [سورة الفجر: آية ١٤].

انتهى القسم الأول من الفاتحة؛ الثلاث الآيات الأولى، وتضمن الصفات الأربعة؛ الألوهية والربوبية والرحمة والملك، وهي أصول الأسماء كلها، وتضمنت أركان الإيمان بالله، وهي أسباب استحقاق العبودية؛ معرفته ومحبته بالحمد





ألوهية وربوبية، رجاؤه والطمع بما عنده من الرحمة بكونه الرحمن الرحيم، خوفه وخشيته ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥] بكونه مالك يوم الدين.

وهذه الأسماء الأربعة: الله، والرب، والرحمن، الرحيم، والمالك، تدور عليها جميع الأسماء والصفات، والكمالات جميعاً ترجع إليها، الصفات المتعلقة بالإلهية، والمتعلقة بالربوبية، والمتعلقة بالرحمة، والصفات المتعلقة بالمُلك، فعليها مدار أسمائه سبحانه وصفاته، أي إنَّ هذه الصفات في اتساعها وشمولها وكمالها تجمع تحتها صفات الجلال والكمال والجمال التي تدل عليها بقية أسماء الله، فمن تدبَّر معانيها، فتحت له أبواب الهداية والعلم بمولاه.

في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدلُّ على أنَّه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمن محمود، ومَلِك محمود.





فتأمل: حمد يحملك على الحب لهذا المحسن المتفضل بإحسانه عليك، أن خلقك من عدم ورباك بنعمه، وأنت جزء من هبأة في ملكه، وهو في ذاته قبل هذا الإحسان إليك أهل الشناء والمجد، حمد نفسه العلية وأثنى عليها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة فاطر: آية ١] المتعزز بالعظمة والكبرياء والمتفرد بالبقاء.

فلا تملك إذا عرفته وآمنت به إلا أن تحبه، والمحبة ليست ركعتين أو صوم يومين، المحبة إحساس لا يكتسب بل يوهب من الله ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة: آية ١٦٥] ومحبة الله يدركها المؤمن بجلب أسبابها، بأن يتعرف على مولاه لإحسانه ومحاسنه وإنعامه وتفضله، ومع اعترافك بهذا الجميل الذي يأخذ بمجامع قلبك أنت عاجز عن شكره، بل أنت مقصر في حقه، فلا تملك إلا أن تخجل وتذل نفسك وتزديرها، فإذا تملكك هذا الإحساس تعبد قلبك لربك وخضع له، ودخلت في أهم أعمال القلوب التي ستفيض على جوارحك فتتحقق العبادة، هذا بحمد ربك فقط.





والمحب لا يرى كلفة في عمله، فالمحب منفعل لمن يحب ولمراضيه، حتى لو كان أمر حبيبه على كره منه، فهو يعبد الله ويحس بأنواره ترعاه وتحيطه من جهاته يمد بها الكائنات بأسباب الوجود والرزق والرحمة.

فالله قد ضرب ذل العبودية على الناس، فمن لم يذل اختياراً أذله الله اضطراراً رغم أنه، يمضي إلى ما قدر الله عليه
﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [سورة مريم: آية ٩٣].

وأنت مخلوق مربوب في هذا العالم، تتلمس طريقك وتتساءل وترجو: ياربي، إني أحبك، وأنت تستحق الشاء على نعمك وآلائك، فيلهج لسانك بحمد ربك وتنزيهه والثناء عليه وشكره، فيأتي التمجيد الثاني ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فتطمئن وترجوه وتطمع في رحمته بأن يتجاوز عن تقصيرك ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [سورة الأحقاف: آية ١٦] فهو يقبل من قليل العمل برحمته ويتجاوز عن التقصير برحمته ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٥٦] ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [سورة الشعراء: آية ٨٢].



فلا أحد يدخل الجنة بعمله كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمَدَنِي اللَّهُ بِفَضْلِ وَرَحْمَةٍ»^(١) فما بقي إلا الطمع والرجاء في الله: طائع يرجو أن يقبل عمله فلا يترك عملاً دقيقاً ولا صغيراً مهما كان إلا عمله، لعل نجاته فيه، وعاص يرجو أن يغفر ذنبه فهو خائف، وهذا يحدث كسرًا في القلب، وأن تبسط أنامل الرجاء، أن يريك ثواب الكف عن المنهي، يغريك بتركه، والرجاء عبودية متى خرجت من القلب أوقعت المرء في اليأس.

ثم يأتي التمجيد والثناء الثالث ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

حيث تذكير المؤمن بيوم الحساب والجزاء، وما يلزم من الخوف من عذاب يوم عظيم، فالخوف والرجاء متلازمان في قلب المؤمن ﴿نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ^(٥٠) [سورة الحجر: آية ٥٠].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل (رقم ٦٤٦٣) ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله (رقم ٢٨١٦).





بعد أن أنهى اليقين بمستحق العبادة فقد تهيأ قلبه للدخول في العبادة واستعد لها، وامتلاً بحب ربه، فهو يسير إليه بجناحي الرجاء والخوف، فالمطيع العامل أكثر همه الخوف من سوء الخاتمة وعدم قبول العمل ﴿يُؤْتُونَ مَاءً آتِوًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [سورة المؤمنون: آية ٦٠] وهو أيضاً يخاف أن عمله لا يدخله الجنة، أو يرد عليه عدلاً من الله، فيجدد في العمل مرة أخرى حتى يصل إلى سقف القدرة، فيأتيه الخوف مرة أخرى؛ هل شكرت نعم الله عليك؟ لا يزال يتقلب بين الخوف والرجاء حتى يصل إلى الله في قمة عمله، والعاصي التائب أكثر همه أن يرحمه الله ويتجاوز عنه.

فهذا القسم الأول من هذه السورة العظيمة يهيئ المؤمن لاحتواء العبادة، فهو منعم يربي عباده بنعمه.



القسم الأوسط

الإقرار



﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ 

﴿هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي﴾^(١) ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة

هود: آية ١٢٣].

هذا هو القسم الثاني أو الأوسط من هذه السورة العظيمة، فبعد ذكره تعالى اتصافه بأحسن صفات الجلال والتمجيد والثناء والحمد والشكر له، ولما استجمع الأمر أنه المستحق للحمد كله وتحبيبا لعباده بالربوبية وترغيبا لهم بالرحمة وترهيبا بيوم الدين، كان من شأن كل عاقل الإقبال إليه وقصر الهمم عليه وموجبا لاستحقاقه واختصاصه بالعبادة والاستعانة، قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لله سبحانه وبحمده ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ للعبد، وللعبد ما سأل، وهي بشرى عظيمة للمصلين بأن الله يلبي طلبهم ويستجيب دعوتهم.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي العقد من فاتحة الكتاب، هي الوسط، قبلها ثلاث وبعدها ثلاث، وهي العهد والوعد بين العبد وربّه، يقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيقول

(١) جزء من حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الذي أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).





الرب: «هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي» ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ «وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» أي إن لك بعد هذه الآية أن تسأل ما تريد ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ [سورة البقرة: آية ١٨٦] الذين قالوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بقلوبهم بألسنتهم بأفعالهم بأحوالهم في حياتهم، وقالوا أيضًا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنه لو لا عون الله لما استطاعوا أن يعبدوا الله.

إن سر الفاتحة وأساسها هاتان الكلمتان ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهما مدار العبودية والتوحيد وسر الخلق والأمر، والمقصود الأعظم، وهي ملخص رسالة الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي جاء القرآن ليبيانا وشرحها.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في هذه الآية رغم قصرها أسرار غريبة ومعان عجيبة، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، وهما الكلمتان المقسومتان بين العبد وبين ربه نصفين، فنصفهما له تعالى وهي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصفها لعبده وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن أولها اقتضى عبادته بالأمر والنهي، والمحبة والخوف، والرجاء والطاعة والتعظيم، وآخرها اقتضى عبوديته بالاستعانة والتوكل والثقة والتفويض





والتسليم والاعتماد عليه.

إن أجل الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته، فهو يعبد بألوهيته ويستعان بربوبيته، ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته، فلا معبود يستحقُّ العبادة غيره، ولا مُعينَ على عبادته غيرُه، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجلُّ الوسائل.

بعد الثناء بأحسن الصفات على الله تعالى أعقبها العبد بأحسن ما ينبغي له تجاه ربه وإلهه الموصوف بهذه الصفات الحسنى، فتوجه له بالعبادة وطلب منه الإعانة عليها، وهذا توسل بالعبودية والتوحيد بعد أن توسل بالأسماء الحسنى والصفات العلا، وهذان التوسلان لا يكاد يرد معهما الدعاء.

لما ذكر مستحق الحمد تحقيقاً وثناء وتمجيذاً، ووصفه بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات، وتعلق العلم بمعلوم معين، خو طب بذلك، أي: يا من هذا شأنه وهذه الصفات صفاته، نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلوم صار عياناً حاضراً، والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً.





فأول التدبر أن تقف مع نفسك وهذه الآية؛ هل تنطبق عليك؟ أي هل أنت تمتثل الأوامر حتى تعرف أنت تعبد من؟ (حيي على الصلاة) أمر من ربك، دعوة من ربك، قالت لك نفسك: ارقد. قال لك الشيطان: ارقد. فلمن تستجيب؟ هل تستجيب لهوى نفسك؟ إذا أردت أن تحقق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بقلبك ولسانك وبجوارحك وبأحوالك، ينبغي أن تتجرد، أن تتحرر، أن تخرج من سلطان نفسك عليك ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [سورة يوسف: آية ٥٣] لا تتبع أمرها وهي تأمر بالسوء، وإذا تعارضت مصلحة دنيوية وأخروية فهناك قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَزَّلُكَ﴾ [سورة طه: آية ١٣٢].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هذه الكلمة تجمع سر الكتب المنزلة من السماء كلها؛ لأن الخلق إنما خلقوا ليؤمنوا بالعبادة، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: آية ٥٦] وإنما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب لذلك، فالعبادة حقُّ الله على عباده، ولا قدرة للعباد عليها بدون إعانة الله لهم، فلذلك كانت هذه الكلمة بين الله وبين عبده، لأن العبادة حقُّ الله على عبده، والإعانة من الله فضلٌ من الله على عبده.





﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك ولا نستعين بغيرك، ونحن إذ نريد أن نطيعك ونعبدك ونتقرب إليك فإننا نفوض الأمر إليك، ونتبرأ من حولنا وقوتنا، فإن لم تعنا على ذلك خسرنا، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك! تستنجد بالله وتستغيث: يارب، إنا نعتد عليك فأعنا على مرضاتك وطاعتك.

لا نعبد إلا أنت، متذللين لك وحدك لا شريك لك، ولا نستعين إلا بك وحدك لا شريك لك، نعبدك وحدك، نخصك بدعائنا وخوفنا ورجائنا وصومنا وصلاتنا وذبحنا ونذرنا، وغير هذا من العبادات، كلُّ لله وحده، فهو الذي يدعى ويرجى ويخاف ويتقرب إليه بالصلاة والصوم والحج والنذر والذبح وغير ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ يعني ذبحي ﴿وَحَيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٣) لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿سورة الأنعام: آية ١٦٣﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أشارت إلى تحقيق معنى (لا إله إلا الله) بنفي ما يعبد من دون الله تعالى في تقديم



﴿إِيَّاكَ﴾ والإثبات بإفراد الله بالعبادة في ﴿نَعْبُدُ﴾ .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الإلهية ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مبني على الربوبية، وهذا أول شروط قبول العبادة، وهو الإخلاص، في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فتقديم المعمول يفيد الحصر، وهي تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل، التحرر من عبودية سوى الله. وإذا كان الله وحده هو الذي يعبد، والله وحده هو الذي يستعان، فهذا تخلص للبشر من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص، ومن استذلال الأساطير والأوهام والخرافات.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أن نبدأ مع أنفسنا حقيقة ومصارحة، وكل خير بنفسه، التجرد من جميع المتسلطين على قلوبنا ونفرغ قلوبنا إلى ربنا عزَّجَلَّ ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة الفتح: آية ١٨] ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَسَأَلْتُمْ مِنْكُمْ﴾ [سورة الأنفال: آية ٧٠] إن المحب لمن يحب مطيع.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنك إن حققتها وجدت ما بعدها، بل أعطيت ما بعدها، وهو (إياك نستعين) وإن وصلت إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فاعلم أن (إياك نستعين) ناتج موجود محقق





«يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»^(١) أي: أعتته على عبادتي، وسهلت له ويسرت له وقربته، فلا يكون في قلبه سواي، ولا يمشي إلا إلى مرضاتي ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [سورة فصلت: آية ٣٠] فقولك: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ سهل لكن الاستقامة صعب لأن عوامل الانحراف كثيرة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هو عَزَّوَجَلَّ مستحق العبادة لأن له الحمد، وهو مستحق العبادة بالمحبة والتعظيم قبل الرجاء والخوف. والعبادة لا يمكن أن تكون إلا إذا كان المعبود معروفاً، لهذا كان العلم بـ(لا إله إلا الله) قبل كل علم وقبل كل عمل وقبل كل نية أو قصد ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة محمد: آية ١٩] لا معبود بحق إلا الله، وما خلق تعالى هذا الكون بعوالمه إلا ليعبد وحده ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤] ولا إله في الدنيا ولا إله في الآخرة سواه، وهو إله الأولين والآخرين.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وأنت تقولها فتصور الخلق كله وتنظر في

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: التواضع (رقم ٦٥٠٢).



دقة الخلق وقوة الخلق وجمال الخلق وحسن الخلق ﴿الَّذِي
أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه: آية ٥٠] وأن تدبير
الخلق والملك بيد الله ﴿يُدَبِّرُ الْأُمُورَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [سورة
السجدة: آية ٥] وهو خلق بعلم، وهذا العلم مكتوب.

الحمد لله غيب، ورب العالمين غيب، ويوم الدين غيب،
فالتفت السياق إلى إياك، لا (إياه) من الغيب إلى الحضور، إلهاً
رباً رحيماً مالكاً بفصائل الألوهية وفواضل الربوبية والرحمانية
والرهبة في ملك يوم الدين، فأصبح الإله الغيب بتلك الحثيات
السابقة إلهاً حاضراً لديك بالتخصيص بضمير (إياك) لأن مقام
الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فتحقق لك الإحسان بعد أن
تحقق لك الإيمان، كأن العبد لما حمد ربه وأثنى عليه ومجده
قربه وأدناه، فصار الأسلوب فيه غيبة في أوله، ثم صار حضوراً
بين يدي ربه. وسر هذا الالتفات أن الحامد لما حمد الله تعالى
ووصفه بعظيم الصفات، بلغت به الفكرة منتهاها، فتخيل نفسه
في حضرة الربوبية، فخطب ربه بالإقبال، ولذلك تحول الكلام
من الشناء إلى الدعاء، والدعاء يقتضي الخطاب.





والأصل في العبادة التذلل والخضوع، ومنها سمي المملوك عبداً لذلته وخضوعه وسكينته وخشوعه وانقياده لسيده ومولاه، ومنها الناقة الذلول، أي مذلة للركوب في الحوائج، والطريق المعبد، هو المذلل للسير فيه، فهي التعبد والخضوع والتذلل لله محبة وتعظيماً، فلو عبد المرء قلبه لسارت عليه نصوص الوحي مثمرة؛ امتثالاً للأمر واجتناباً للنهي، وعلى قدر وعورة القلب وقساوته يكون تمللمه وعناده.

فالعبادة هي كل ما تُعبد الله به، سواء كان ذلك مما يجب فعله أو مما يجب تركه، أو مما يستحب فعله أو مما يستحب تركه، ويدخل في ذلك المباحات مما يعملها الإنسان لمصلحته إذا قصد به التقرب إلى الله بالتقوي على طاعته أو إظهار نعمته.

وللعبادة بمعنى التعبد شرطان: ❁

■ الشرط الأول:

معرفة المعبود عزَّجَلَّ فحتى يتحقق الذل والخضوع للمعبود فإنه يشترط أن تتحقق معرفته، والسبيل إلى ذلك هو العلم بما للمعبود سبحانه من الأسماء والصفات ومعاني الربوبية، وما له من كمالات، والله سبحانه له الكمال المطلق





التام في كل وجه، وروبو بيته لخلقه بنعمته وإفضاله مقابل تقصير العبد ﴿كَلَّا لَمَآ يَقْضَىٰ مَا أَمْرُهُ﴾ (سورة عبس: آية ٢٣] فيحبه وينكسر له ويذل ويخضع ويخشع.

■ الشرط الثاني:

وهو معرفة دينه، فإن شرط المحبة هو متابعة أوامر المعبود واجتناب نواهيه، وأوامره ونواهيه هي دينه الذي أنزله، ولا يمكن أن تتحقق المتابعة لدينه إلا بعد معرفته، ولذلك كانت معرفة دين الله شرطاً في التعبد.

اعتبار كمال الحب مع كمال الذل هو أصل التأله (التعبد)

والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل، فالعابد محب خاضع، ويخرج من العبودية من يحب لمن لا يخضع له، كمن يحب ليتوسل إلى محبوب آخر، ومن يخضع لمن لا يحب كمن يخضع للظالم رغماً عنه، فأساس العبادة المحبة والتعظيم، والعبادة مبنية على أمرين عظيمين: المحبة والذل له، لإحسانه وإنعامه والشعور بالتقصير في حقه، والتعظيم والثناء لمحاسنه وكمالاته، وينتج عنهما ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْتَرْعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ (سورة الأنبياء: آية ٩٠).





فبالمحبة تكون الرغبة والرجاء، وبالتعظيم تكون الرهبة والخوف، ولهذا كانت العبادة أوامر ونواهي؛ وأوامر مبنية على الرغبة وطلب الوصول إلى الأمر، ونواهٍ مبنية على التعظيم والرهبة من هذا العظيم.

فإذا أحببت الله تعالى رغبت فيما عنده، ورغبت في الوصول إليه، وطلبت الطريق الموصل إليه، وقمت بطاعته على الوجه الأكمل، وإذا عظمته خفت منه، كلما هممت بمعصية استشعرت عظمة الخالق تعالى ومراقبته فنفرت، فهذه من نعمة الله عليك، إذا هممت بمعصية وجدت الله أمامك، فهبت وخفت وتباعدت عن المعصية؛ لأنك تعبد الله رغبة ورهبة.

وقد جعل الله تعالى العبودية وصفًا لأكمل خلقه وأحبهم إليه، وهم أنبياءه ورسله، كما جعلها وصفًا لمن اصطفاه من المؤمنين، فوصف بها نبيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل خلقه وخاتم رسله في أفضل مقاماته، وهو إنزال الكتاب عليه ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [سورة الكهف: آية ١] ووصف بها الصالحين من المؤمنين ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [سورة الفرقان: آية ٦٣] وجعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ



كَأَنَّكَ تَرَاهُ» (١).

ليست العبادة عناء ومشقة كي يستريح منها المسلم، بل هي محبة وتعظيم لله تعالى، يبعث عليها صادق الرغبة إلى الله، ويهيج إليها عظيم الشوق إليه سبحانه، يتذلل المسلم بها بين يدي ربه ومولاه، يناديه ويناجيه مقبلاً إليه، راجياً رحمته، سائلاً فضله وكرمه وقربه.

إن محبته سبحانه توجب عبوديته وطاعته، وتتبع مرضاته واستفراغ الجهد في التبعده، والإنابة إليه، وهذا الباعث أكمل بواعث العبودية وأقواها، حتى لو فرض عدم وجود الأمر والنهي والثواب والعقاب.

وعلة الخلق هي العبادة، وهي المراد الأول، لتسعدنا وتنظم حركتنا، فهو سبحانه خلق ليعبد، كل الخلق عبيد تسري عليهم أمور قهرية، فالعبيد متساوون فيما يقهرون عليه، لكن مراده الشرعي أن يكون له عباد، ويدخل في العباد كل من يتنازل عن

(١) جزء من حديث جبريل المشهور، أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عن الإسلام والإيمان والإحسان (رقم ٥٠) ومسلم في كتاب الإيمان، باب: الإيمان والإسلام والإحسان (رقم ٩).





اختياره في الحياة لمراد ربه في التكليف، فيدخل ضمن العباد، وهم من يأتون بالحب وهو مختارون ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [سورة الزخرف: آية ١٩] ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الزمر: آية ٥٣] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الحجر: آية ٤٠].

فالله سبحانه يُعْبَدُ وَيُحْمَدُ وَيُحَبُّ لَأَنَّهُ أَهْلٌ لِّلذِكِّ وَمُسْتَحَقُّهُ، بل ما يستحقه سبحانه من عباده أمرٌ لا تناله قدرتهم ولا إرادتهم ولا تتصوره عقولهم، ولا يمكن أحداً من خلقه قط أن يعبد حق عبادته، ولا يوفيه حقه من المحبة والحمد، ولهذا قال أفضل خلقه وأكملهم وأعرفهم به وأحبهم إليه وأطوعهم له: **«لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ»** ^(١) وأخبر أن عمله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَسْتَقِلُّ بِالنِّجَاةِ فَقَالَ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»** قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **«لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِفَضْلِ وَرَحْمَةٍ»** ^(٢) عليه صلوات الله وسلامه عدد ما خلق في السماء،

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (رقم ٤٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل (رقم ٦٤٦٣) ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله (رقم ٢٨١٦).



وعدد ما خلق في الأرض، وعدد ما بينهما، وعدد ما هو خالق.
وفي الحديث المرفوع المشهور أن من الملائكة من هو
 ساجد لله لا يرفع رأسه منذ خلق، ومنهم راعع لا يرفع رأسه
 من الركوع منذ خلق إلى يوم القيامة، وأنهم يقولون يوم القيامة:
 سبحانك ما عبدناك حق عبادتك^(١).

فالآيات الثلاث قبل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي أصول العبادة
 بكمال المحبة والحمد، وتقتضي الشاء والشكر، ولا يكون
 إلا على النعمة؛ لأنه رب العالمين، وهذا يقتضي كمال محبته،
 وجميع العالمين وسعتهم رحمته ﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾
 [الإسراء: ٤٤] وحمده دليل محبته، فكل الكائنات محبة له، ولو
 رأيت في كل عوالم الأحياء لرأيت محبة الله في أرجاء هذا
 الكون ﴿قَالَتَا أَنِنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: آية ١١] وهما جماد
 والطاعة تقتضي المحبة.

ومن مستلزمات الحب التعبدي تيقن العبد أن ليس
 بمقدوره أن يشكر الله حق شكره على هذه النعم الدينية، من
 الإيمان والعلم والتقوى، والنعم الدنيوية، من الصحة والمال،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٥٦٣).





إضافة إلى النعم الأخروية والجزاء الجزيل على العمل القليل في العمر القصير ومضاعفة الحسنات إلى عشرات أضعافها، فكيف له أن يستوفي حق الشكر! فالشكر هو نفسه نعمة من الله تستوجب الشكر «سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ»^(١).

كل محب يصل إلى قلبه من محبوبه خاطرًا رجاءً أن يقبل، أن يلتفت، أن يقرب، وهذا هو الطمع والرجاء، وهناك خاطر خوف ألا ينظر، ألا يقبل، فإذا حصل كمال المحبة وكمال الرجاء وكمال الخوف تحققت أعلى مقامات العبودية، والكمالات تتفاوت على قدر تفاوت العلم بالمحسوب، فأصبح العلم بالمحسوب أعلى درجات العبادة ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٨] فجعلهم مع الملائكة لعظم قدرهم.

فإذا خفت من يوم الدين انطلقت لعبادة رب العالمين ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾^(١٠) فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ [سورة الإنسان: آية ١٠-١١] لأنه رب العالمين، لأنه الرحمن، لأنه ملك يوم

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (رقم ٤٨٦).



الدين، ولأنهم قالوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فالعبادة مبنية على المحبة، والمحبة على قدر الإحسان، فمن أحسن إليكم أكثر من الله! وما بكم من نعمة فمن الله.

هو قادر سبحانه أن تصبح العبادة بالإكراه ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [سورة الشعراء: آية ٤] لكن العبودية تأتي بالحب لا بالإكراه، فمن عصوا وكفروا لم يخرجوا عن مراد الله؛ لأنه أعطاهم الاختيار، لكنهم خرجوا عن محبوبه العبادي ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [سورة الحجرات: آية ١٣] وأعلى من حقق درجات التقى والعبودية (بمعنى عباد) هم الأنبياء، وسيدهم المصطفى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث هو في القمة، فهو الذي حقق أسمى درجات العبودية المرادة لله كما يحبها الله وفي قوله: (نعبد).

فحقيقة عبد الله هو خضوع يحرك أن تخضع لسواه، فهي عبودية أورث حرية، فلا تلتفت لسواه من خلقه مهما سمت مراتبهم ومكانتهم الدنيوية ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [سورة الفرقان: آية ٥٨] فإياك نعبد ونعتز بالخضوع لهذا الإله المحمود بكماله وجلاله، فهي في الحقيقة رحمة لهم من





ذل عبوديتهم لسواه (حسب نفسي عزاً بأني عبد يحتفي بي بلا
مواعيد ربي هو في قدسه الأعز ولكن أنا ألقاه متى وأين
أحب).

ومن لطائف صيغة الجمع في (نعبد) فيه معنى (هب
المسيئين منا للمحسنين) إذا رأيت أحد المسلمين أعبد
منك فافرح أنك تدخل معه في الزمرة «هُم الْقَوْمُ لَا يَشْتَقِي بِهِمْ
جَلِيسُهُمْ»^(١).

من صحَّ له العلم بمولاه لا يصح في حقّه ركونٌ إلى
دنياه، بل تسير به هِمَّتُهُ في الطريق الموصلة لغايته من رضا
ربّه وجنته، فيقطعها العبد بالعبادة، ومنه سبحانه الإعانة؛ قال
تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ العبادَةُ تُبرئُ من
الشرك، والاستعانة تبرىء من الحول والقوة، وتفويض إلى الله
عَزَّجَلَّ وإلى هذين المعنيين يرجع الدين كله، وهذا المعنى في
غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب: فضل ذكر الله (رقم
٦٤٠٨) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب: فضل مجالس الذكر (رقم
٢٦٨٩).



رُبُّكَ بِعَفْوَ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ [سورة هود: آية ١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ
ءَامَنَّا بِهِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [سورة الملك: آية ٢٩] ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [سورة المزمل: آية ٩] لذا قال بعض السلف:
الفاتحة سرُّ القرآن، وسرُّها هذه الكلمة.

**جاءت ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بما بين العبد
وربه، وحسن أن تأتي مباشرة بعدما ذكر الله تعالى يوم الجزاء
الذي سيجازي كل إنسان فيه على كل عمل، دل عباده على
ما خلقهم لأجله وسيجازيهم عليه، وهو عبادته، أي نخصك
وحدك بالطاعة والعبادة والاستعانة.**

**﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نستعين بك في إخلاص العبودية
لك، ولو قام بعد ذلك طغيان يحول بيننا وبينها من داخل أنفسنا
الأمارة بالسوء أو من خارجها، فيعلمنا الله ألا نهين، بل نستعين
به حين ذلك، وأن نعد لصولة الباطل ما استطعنا من أسباب
ظاهرة، وتكون الاستعانة بالله، فهو يجيب دعوة المضطر الذي
استنفذ كل الأسباب التي أمدها به.**

**وتقديم المعبود المستعان ﴿إِيَّاكَ﴾ فيه الأدب مع الله
بتقديم اسمه على فعل المخلوقين، وتكرار ﴿إِيَّاكَ﴾ للدلالة**





وقفات تدبرية و فوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



على قوة ووجوب التخصيص، وهذا مناسب لحال العبد مع ربه، فهو واقف بين يديه يدعوهُ بالضراعة والإخبات في الصلاة، ويقر بالضراعة في المناجاة، فناسب حال الشاهد لا حال الغائب، نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة بما يفيد الحصر، فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

لك يا ربنا وحدك نخشع ونذل ونستكين، فقد توليتنا برعايتك وغمرتنا برحمتك، فنحن نخصك بطلب الإعانة على طاعتك وعلى أمورنا كلها، ولا نتوجه بهذا الطلب إلى أحد سواك، فأنت المستحق للعبادة، وأنت القدير على كل شيء، والعليم ببواطن الأمور وظواهرها، لا تخفى عليك طوية، ولا تتوارى عنك نية.

وتأمل أيضاً قال (نعبد) ولم يقل (أعبد) وفي هذا تواضع وافتقار وانكسار، أي أنني واحد من عبيدك، فلست أهلاً أن أتقدم إلى جنابك العظيم وحدي، بل أضرم نفسي إلى سائر عبيدك، فعسى أن أكون مقبول العبادة مجاب الدعوة. ولو قال (إياك أعبد) لكان معظماً لنفسه، قد ولج باب الكبرياء، كأنه وحيد الميدان.





وتعليم الله تعالى للمؤمنين هذه الضراعة بصيغة الجمع أرجى للقبول والبركة والإجابة، فالعابد قاصر بنفسه، فيخاطب ربه بلسان جماعة العابدين، فحتى لو كان المرء يصلي وحيداً لا تصح صلاته بأن يقول «إياك» أو «اهدني» فلا بد أن يقول: ﴿أَهْدِنَا﴾ و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وكلها بصيغة الجمع، حتى يعرف المرء أنه ضمن أمة واحدة وأنه ليس وحيداً في هذا الكون، وفيها تذكير بأن هذه الدين هو الرابطه الوطيدة بين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وتباعد أقطارهم وبلادهم.

وكرر الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ مرة أخرى للاهتمام، ودلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت لملك مثلاً: إياك أحب وإياك أخاف، كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته والاهتمام بذكره ما ليس في قولك: إياك أحب وأخاف.

وقدمت العبادة على الاستعانة، لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، وتقديم الوسائل سبب في تحصيل المطالب، وليدل





على أنهم لا يستقلون بإقامة العبادات، بل إن عون الله هو الذى ييسر لهم أداءها. ولم يذكر المستعان عليه من الأعمال، ليشمل الطلب كل ما تتجه إليه نفس الإنسان من الأعمال الصالحة.

وتقديم العبادة على الاستعانة من باب تقديم العام على الخاص، ومن تقديم حقه تعالى على حق عبده، ولأن العبادة هي المقصود الأعظم، وهي الغاية من الخلق ومن العبد، والاستعانة وسيلة إليها، وأن من قدم حق الله على كل شيء وسعى إلى الخير وحقق العبادة لله وحده فإن الله تعالى يحقق له العون والولاية، وييسره ليسرى في دنياه وأخراه، ويتولاه بعطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يرضيه بما يقدره، وهذا يدل أن الدعاء بعد العبادة مستحب.

ف ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه الجليل (الله) ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه الجليل (الرب) فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما تقدم اسم (الله) على (الرب) في أول السورة ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، وهو من القسم الأول في السورة الذي فيه الثناء على الله ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان من القسم الثالث





الذي هو له ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ١ ﴾ والعبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص وغير مخلص، ولأن العبادة شكر نعمته عليك والاستعانة توفيقه لك.

وسر الجمع بين العبادة والاستعانة أنه قطع لمدخل الشرك في العبادة، وهو الاستعانة بغير الله، وهو الباب الذي وقع فيه كل مشرك بالله، فالشرك في الألوهية أخطر ألوان الشرك على الإطلاق؛ لأن قضية الربوبية، وهي الاعتراف بالله عزَّجَلَّ أمر تقر به الفطر والنفوس ولا يحتاج إلى كبير تقرير، وموضوع الأسماء والصفات أيضًا حصل فيه انحراف، لكنه لا يقاس بالانحراف الذي حصل في موضوع الشرك في توحيد الألوهية؛ ولهذا ينبغي أن نعتني كثيرًا بدعوة الناس إلى توحيد الألوهية لأنه أصل الدين وأساس التوحيد.

والعبودية مقام عظيم يشرف به الإنسان، فقد سمي الله تعالى رسوله ﴿عَبْدِهِ﴾ في أشرف مقاماته ﴿أَنْزَلَ عَلَيَّ عَبْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: ١] ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [سورة الإسراء: ١] وهي تعني التحرر المطلق من كل عبودية لغير الله تعالى.





العبادة يتحقق فيها التوازن، حيث يعمل الإنسان لآخرته ويعمل لدنياه وهو مرتبط القلب بالله ومخلص له، فيثاب على أعماله الدنيوية المحضنة إذا قصد بها التقرب إلى الله، فيترقى على القوة ومقاومة الأهواء، فإذا زكت النفس وسمت وتطهرت فاضت بالخير والتضحية والبذل على من حولها، فلا تتحول العبادة إلى عادة بل يتحقق المضمون الاجتماعي للعبادة.

اعلم أن العبادة تكون عبادة إذا كانت مأخوذة من الوحيين مقصوداً بها وجه الله وحده، أي الإخلاص ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والمتابعة لرسوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بهذين الأمرين تكون عبادة، كما قال الحق عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ اشتملت على نوعي **التوحيد:** وهما توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتضمن التعبد باسم الرب واسم الله، فهو يُعبد بألوهيته ويُستعان بربوبيته، ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته، فكان أول



السورة ذكر اسمه (الله والرب والرحمن) تطابقاً لأجل الطالب من عبادته وإعانتة وهدايته، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله، لا يُعين على عبادته سواه، ولا يهدي سواه.

من أراد السعادة الحقيقية فليلزم عبته العبودية ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً﴾ [سورة النحل:

آية ٩٧] فمن أراد السعادة فعليه بكثرة العبادة فهي أقرب طريق إلى الله وإلى حب الله لك، فأما أنك تحب الله فهذا أمر فطري طبعي، لكن أن يحبك الله، يحبك المالك الخالق الغني عنك، فهذا هو أسمى المقاصد وأعلاها، فحافظ على الفرائض أكثر من النوافل، افهم شمولية العبادة لتجعل كل شيء في حياتك عبادة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٦٢] ابتسامتك صدقة، الكلمة الطيبة صدقة،

الأذى تميظه عن الطريق صدقة، الشهوة تقضيها في الحلال تؤجر عليها، جماع الأمر إنما هو بتكميل عبودية الله في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله، وكمال عبودية العبد موافقته لربه في محبة ما أحبه، وبذل الجهد في فعله، وموافقته في كراهة ما كرهه وبذل الجهد في





تركه، وهذا إنما يكون للنفوس المطمئنة.

والعبادة والاستعانة متلازمان لا تتحقق إحداهما دون الأخرى، فلا تتحقق العبادة دون عون الله للعبد، ولا يحصل العون من الله دون عبادته، فبهما معاً يتحقق الإيمان وكمال الطاعة، فالعبادة الخالصة براءة من الشرك، والاستعانة بالله دون سواه براءة من الحول والقوة وتمام التفويض إليه **عَزَّجَلَّ** فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وجاءت الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي، فبهما تتحق السعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور.

حقيقة الاستعانة هي الثقة بالله والاعتماد عليه، ومنشأ ذلك معرفة القلب بمولاه، وأنه سبحانه المتفرد بالخلق والتدبير، والضّر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاءه كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس، فلا يعتمد إلا عليه ولا يفوض أمره إلا إليه، ولا يطمئن قلبه إلا به، فحال المستعين كحال الطفل مع أبويه فيما يرحوه أو يخافه،





لا تجد قلبه يلتفتُ إلى غير أبيه، وتراه كامل الثقة والاعتماد عليهما، فهذه حال المتوكل، ومَن كان هكذا مع الله فالله كافيه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [سورة الطلاق: آية ٣] أي: كافيه.

التوكل والاستعانة هو نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة والعبادة، والحياة كلها ما هي إلا عبادة واستعانة، فكل ما يواجهه العبد في حياته إما أن يدعوه إلى خضوع واستكانة، وإما أن يدعوه إلى سؤال واستعانة، وأنفعها طلب العون على مرضاة الله «اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(١).

﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يفهم المؤمن منها أن الدنيا محكومة بقانون الأسباب، والله ربه قد خلق الأسباب المحسوسة المادية في هذه الدنيا، وهي كلها لتكون له صديقاً مساعداً متعاوناً، لذا فإن الأوهام لن تملأ عقله أو قلبه تجاه القوى المحسوسة وغير المحسوسة، ولن تقوم بينه وبينها

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: في الاستغفار (رقم ١٥٢٢) والنسائي في كتاب السهو (رقم ١٣٠٣).





المخاوف لأنه يؤمن بالله وحده، ويعبد الله وحده، ويستعين بالله وحده.

وهذه القوى كلها من خلق ربه ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [سورة الفلق: آية ٢] وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسرارها ويستعين بالله عليها أو يستعيد به من شرورها، فتبذل له معونتها، وتكشف له عن أسرارها فيعيش معها في كون مأنوس صديق.

ومع أن الاستعانة هي نوع من العبادة، والدعاء أخص أحوالها، إلا أن المؤمن يعلم يقيناً أنه لن يعبد إلا بعد أن يعينه فيدعوه بذلك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هنا قد غمرتك السكينة والطمأنينة بأنك قد ألقيت له مقاليد نفسك ليعينك على الخير، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي الغاية، فلن تستطيع أن تعبد ربك إلا به، وهنا تأتي الوسيلة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ للحصر والتخصيص في أصل توحيد الألوهية وإفراد الله بالعبادة، لأنه أصل الدين وحق الله تعالى على العبد، فيقر به «هذا بيني وبين عبدي»^(١) ثم هو يستعين

(١) جزء من حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الذي أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).



وقفات تدبرية و فوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



بالله تعالى على ذلك، إذ لا قوام له، حتى على التوحيد فضلاً عن غيره من أمور الدنيا والآخرة، إلا بعون الله.

ولما كان العبد ضعيفاً فقيراً احتاج أن يسأل الله تعالى العون، قال (إياك نستعين) والاستعانة هنا على إطلاقها، فنستعين بك يا الله على كل شيء، وإن كان أعظم مقاصدها هما العون على العبادة، وكأنه يقول: نحن يا ربنا نريد أن نطيعك ونعبدك ونتقرب إليك، فإن لم تعن على ذلك فقد خسرنا.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيت في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولهذا روي أن حملة العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقولهم (لا حول ولا قوة إلا بالله) وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال إنها: «كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ»^(١) وكما أن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تبرؤ من الشرك

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الغزوات، باب: غزوة خيبر (رقم ٤٢٠٥) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر (رقم ٢٧٠٤).





وقفات تدبرية و فوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



فإن ﴿وَأَيُّكَ نَسْتَعِيبُ﴾ تبرؤ من الحول والطول والقوة،
وتفويض لله للواحد القهار.

✽ والاستعانة تجمع أصليين:

* أولاً: الثقة بالله والتعلق بقدرته ورحمته.

* ثانياً: صدق التوكل واليقين والاعتماد عليه، وبها يكون
التفات القلب إلى الله وحده لا إلى الأسباب، وكأنها لا
شيء لذاتها إن لم ينفع الله بها، فالاستعانة هي الاعتماد
على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة
به في تحصيل ذلك.

فما أحوجنا إلى عقيدة الاستعانة بالله والتوكل عليه
تنغرس في الأذهان وتتأصل في الجنان، فمن توكل على الله حق
توكله كفاه، ومن استعان به أعانه الله ووقاه.

من المعين إذا ادلهم الخطب وحل الكرب وعم الجذب؟
﴿وَأَيُّكَ نَسْتَعِيبُ﴾.

من المعين إذا ضعف الإيمان وكثرت فتن الزمان وتفرق
الإخوان؟ ﴿وَأَيُّكَ نَسْتَعِيبُ﴾.





من المعين عند فقد الأحاب وموت الأصحاب وقع المصاب؟ ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾.

من المعين إذا قست القلوب وكثرت الذنوب وظهرت العيوب؟ ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾.

من المعين إذا عم الكبر وكثر السحر وناقض الشعر؟ ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾.

من المعين إذا كثر إفساد ذات البين وكثر الدين وصوبت العين؟ ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾.

هي تحقيق لقولك (لا حول ولا قوة إلا بالله) ففيها تبرؤ من الحول والقوة إلا باذن الله.

﴿وَيَاكَ نَعْبُدُ﴾ هي علاج للرياء لأنها تذكير بمقام الإخلاص ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾ هي علاج للكبر؛ لأن فيها تذكيراً بحاجة العبد إلى ربه وافتقاره إليه، لأن في قوله ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾ تحقيق لكلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله).

ومن أخطر أمراض القلوب مرضان يعرضان للقلب، فيُتلفانه ويُفسدانه ويذهبان الإيمان منه؛ الرياء والكبر، فلو تدبّر





المرائي حقيقة العبودية ومقام الألوهية لما التفت إلى البشر؛ فما لهم من الأمر شيء، ولو نظر المتكبر لحقيقة الاستعانة لرأى صغر نفسه وعجزها وضعفها وحاجتها، فدواء الرياء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن من عوفي من مرض الرياء ومرض الكبر والعجب ومن مرض الجهل والضلال بـ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه وتمت عليه النعمة.

والدين ملخص في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيها أركان الإسلام من عبادات القلوب والجوارح كلها، وفي جميع انفعالات الحياة وحركاتها نحتاج إلى ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فما خرج شي عن هذه الآية، فهو يستشعر القول: إني أتقرب إليك بالعبادات، وأحتاج إلى عونك يا ربي في قضاء حوائجي كلها وأهمها عبادتي لك.

فالدين والدنيا مجموعان في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالصلاة تعبد تحتاج لأن تعان على أدائها، والصيام تعبد تحتاج لأن تعان على القيام به، حتى أمور الدنيا المجردة تحتاج إلى الإعانة، وإذا نويت أن تجعلها (إياك نعبد)



بالتقرب إلى الله بها ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وإذا استعنت بالله على قضائها.

وكانت جماليات ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في أهم مسألة يستعان بالله على تحقيقها: اهدني يارب إلى الصراط المستقيم، صراط الإسلام والقرآن والالتزام بمنهج محمد ﷺ في العبادات والمعاملات في كل نفس من أنفاس عمري في دقائق الحياة وتفاصيلها.

﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا أستعين إلا بك، ولا ألتجئ في كشف كربتي وإجابة دعوتي إلا إليك؛ لأنك تطلب من عبادك أن يسألوك، فأنت قريب، ياربي أعني في إجابة دعائي، ياربي لي إليك حاجة هي أعظم حاجة، هي الهداية، اقضها، ياربي دلني على الدين القويم، ثبتني عليه، بصرني فيه، علمني كلياته وقواعده وتفاصيله في كل حركة وسكنه، فهو الإسلام النعمة الحقيقية، وهي الاستقامة على الصراط مع المنعم عليهم، ياربي إني أطلب العون منك يا الله ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فاهدنا.





فالعبادة نزهة القاصدين، وأنس المحبين، وبهجة العارفين،
بها قُرَّةُ أعينهم، وفيها مَسرة قلوبهم، ومنها راحة أرواحهم،
وإليه أشارَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «أَرِحْنَا بِهَا يَا بَلَاءُ»^(١).

والاستعانة إجلالك لنعوت كرمه، ونزولك بساحة
جوده، وتسليمك إلى يد حُكمه، فتقصده بأمل فسيح، وتخطو
إليه بخطو وسيع، فوجب من ذلك على المعرضين عن مقام
العبادة والاستعانة المنشغلين بسفاسف الدنيا الخذلان.
اللهم إنا نستعينك ونستهديك، ونؤمن بك ونتوكل عليك،
ونستغفرك ونتوب إليك.

ومن هنا تظهر هدايات الوصول في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ﴾ حيث بها صلاح الإرادة والعمل، فتمحص عند
العبد غايته في حياته، وهي العبادة، فلا يشغل غيرها، والوسيلة
الموصلة إليها، وهي الاستعانة، فلا يتوسل بما سواها.

في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إثبات النبوة، فإن طريق التعبد
لا يعرف إلا عن طريق رسله، في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
إيمان بالقدر، لأن العبد يطلب العون من الله القادر على كل
شيء، المتصرف كيف يشاء.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب: في صلاة العتمة (رقم ٤٩٨٥).





وعطف ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على ﴿يَاكَ نَعْبُدُ﴾ يفيد أن من سعى للخير فحقق العبادة لله، فإن الله يحق له العون، لكن درجات العون والولاية تتفاوت بحسب تفاوت الناس في العبادة، فكلما كان المرء أكثر تعبدًا لله حصل له من العون والتأييد ما هو أكثر، فإذا التزمت بعبوديته ودخلت تحت رقعها أعانك عليها، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم، ولأن ﴿يَاكَ نَعْبُدُ﴾ له ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، وما له متعلق بمحبته ورضاه وما به متعلق بمشيئته والكون كله متعلق بمشيئته، فتقدم ما له على ما يكون به .

ومن كان حاله بين العبادة والاستعانة، فهذا مظنة التوفيق والهداية ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [سورة هود: آية ٨٨] ومن هنا كانت نصيحة المحب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحبيبه معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي لِأَحْبَبِكَ يَا مُعَاذُ، فَلَا تَدْعُ أَنْ تَقُولَ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(١) نصيحة بأنفع الدعاء، مما يحتاجه العبد في جميع أحواله.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: في الاستغفار (رقم ١٥٢٢) والنسائي في كتاب السهو (رقم ١٣٠٣).



القسم الثالث

الدعاء



سؤال الهداية إلى أعظم المطالب وأشرف الرغائب.

هذا هو القسم الثالث والأخير من الفاتحة، فلما ذُكِرَت العبادة والاستعانة بالله تعالى وحده جاء سؤال الهداية إلى الطريق الواضح، فبالهداية إليه تصح العبادة، فمن لم يهتد إلى السبيل الموصلة لمقصوده لا يصحُّ له بلوغ مقصده.

والصراط هو السبيل، وهو الطريق السهل، والصراط في اللغة: هو الطريق بخمسة أوصاف: مستقيم، سهل، مسلوك، واسع، فيه سهولة ويسر، فالطريق المستقيم هو أوسع طريق، والمستقيم هو أقصر وأقرب خط يصل بين نقطتين، وهو المعتدل المستوي لا اعوجاج فيه ولا التواء.

والصراط هو الطريق الواضح شديد الوضوح، والسبيل هو الطريق المنبثقة عنها، فالسبيل هي الطرق المتفرعة عن الصراط؛ سبل الخير وسبل الشر، وأصلها (صراط) بالسين، من: صرط؛ أي ابتلع، لأنه يبتلع السالكين فيه.

وهنا فائدة: استقى الإنجليز من اللغة العربية كثيراً،





فيقولون (ستريت straight) مستقيم و(ستريت street) وهو الطريق بالإنجليزية، لأن اللغة العربية هي أقدم اللغات الموجودة المستعملة، واللغات الأخرى تبع لها، وليس هناك لغة أقدم منها.

ولذلك لا يُجمع الصراط في القرآن، ولم يرد في القرآن إلا مفردًا؛ لأنه يُراد به الإسلام ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥٣]
وهذا مثل دين الإسلام في سائر الأديان؛ فإنه يُوصِل إلى الله وإلى داره وجواره، مع سهولته وسعته، وبقية الطرق وإن كانت كثيرة فإنها كلها مع ضيقها وعُسرها لا تُوصِل إلى الله، بل تقطع عنه وتُوصِل إلى دار سَخَطه و غضبه ومجاورة أعدائه.

فلا سبيل إلى سعادتك إلا باستقامتك على منهج الله، ولا سبيل لاستقامتك إلا بهدایتك، فالهداية إلى الصراط المستقيم نعمة عظيمة ومنة جليّة، في الهداية تجد النفوس راحتها، وبالهداية تجد القلوب سعادتها وأنسها، فهي تجمع مصالح الدين والدنيا والآخرة، فهي مطلب الجميع، وكلنا محتاج إليها في كل حين، خاصة في زمن صعب تكثر فيه الفتن والضلالات





والانحرافات. يا ربِّ، دُلَّنِي على ما تحبُّ وترضى في كلِّ ما يواجهني من أمور هذه الحياة، ثمَّ قَوِّني وأعِنِّي على العمل بهذا الَّذي دللتني عليه.

الهداية هي الحياة الطيبة ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [سورة طه: آية ١٢٤] ومن معاني اهدنا: ملِّ بنا إليك، وخذنا لك، وكن دليلنا، ويسِّرْ إليك سبيلنا، علمنا وأرشدنا ووقفنا، وحبب إلينا العلم النافع لنعبدك بما شرعت، ثبتنا حتى لا ننحرف ونزيغ ونضل بأهوائنا، فقوِّ ربنا هدايتنا وزد إيماننا.

ولتحقيق الهداية لابد من معرفة الحكم، وماذا يريد الله ورسوله منه، والعمل بهذا الحكم عن طريق وجود إيمان قوي في قلب العبد يحدوه إلى العمل، فحين يقول العبد منادياً ربه قائلاً: يا ربنا، دلنا على ما تحب وترضى في كل ما يواجهنا من أمور الحياة، ثم قوِّنا وأعنا على العمل بهذا الذي عرفناه ودللتنا عليه وعلمتنا إياه.

والهداية درجات، والمهتدون طبقات، منهم من يبلغ درجة الصِّدِّيقية، ومنهم من هم دون ذلك، وبحسب هدايتهم





يكون سيرهم على الصُّراط، فإنَّ الله تعالى صراطين: صراطاً في الدُّنيا، وصراطاً في الآخرة، وسيرك على الصُّراط الأخرى، وهو الجسر المنصوب على متن جهنم يمشي النَّاس على قدر أعمالهم، بقدر سيرك على الصُّراط الدُّنيوي، فالصُّراط الدُّنيوي هو طريق الله بطاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الشورى: آية ٥٢-٥٣].

والعبد أحوج ما يكون إلى هذه الهداية وإلا انقطع، فهو محتاج إلى هداية الله ليعلم الحق ويدركه، ثم ليحببه فيه وليقدره عليه، ثم ليجعلهُ مُريداً له، ثم ليجعلهُ فاعلاً له، ثم ليشبته عليه ويستمر به عليه، ثم ليصرف عنه الموانع والعوارض، كلُّ هذا يحتاجه المرء ليهتدي لطريق الحق إجمالاً، ثم بعد ذلك يحتاج إلى هداية أخص من الأولى؛ ليعرف تفاصيله وتفصيل منازلها، ثم هو في حاجة إلى أن يهديه مولاه ليتعد عن طريق المنحرفين عن الحق، طريق أهل العصب الذين عدلوا عن اتباع الحق قصداً وعناداً، وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنه جهلاً وضلالاً، فمن هداه الله إلى ذلك فقد هُدي إلى





الصِّراط المستقيم الواحد الذي سارَ عليه جميعُ أنبياءِ الله
ورُسله وأتباعهم من الصِّدِّيقين والشُّهداء والصالحين.

**و بعد التوسل إلى الله تعالى بحمد الله وتمجيده والثناء
عليه تعالى بأسمائه وصفاته، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده،
وبعد الاعتراف بالعبودية له وتوحيده والتبرؤ من الحول
والقوة إلا به سبحانه - جاء سؤال أهم المطالب وأنجح
الرغائب ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾** ونيله أشرف المواهب
وأجل الأعطيات، كيف وهو سؤال الله الهداية! وهذا دليل
على أن كتاب الله تعالى كتاب هداية لمن يطلبها.

والهداية أجمل ما يطلب وأشرف ما يوهب، لذا أرشد
الله عباده إلى وسيلتين لا يكاد يُرَدُّ معهما دعاء؛ التوسُّل إليه
بأسمائه وصفاته، والتوسُّل إليه بعبادته، يأتي طلب الهداية
ويتفاوت المؤمنون في عمق وإخلاص تحقيقهم ويقينهم من
التوسُّل المذكورين، ومن ثم تفاوت استجابة الله لهم كل
بحسبه، فإذا حققت العبادة بالحمد والتوحيد والاستجابة
له بالاستعانة فاطلب الهداية للاستقامة حتى تصل إلى تمام
النعمة في الجنة.





ووصفه بـ ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إشارة إلى قربه ويسره ووضوحه وحصول الأمن فيه، بخلاف المعوج، وهذا دلالة على كمال الإسلام وسهولته واليسر فيه، وإنه أقرب وأيسر طرق النجاة، موصل إلى المقصود، وهو مستقيم فيوصل مباشرة، فهو الصراط الذي عليه ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: آية ٥٦] وهو الصراط المؤدي إليه ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [سورة النحل: آية ٩] أي السبيل القاصد المعتدل.

و﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو دينه تعالى الذي ارتضاه لخلقه، لا ترى فيه عنتاً ولا مشقة، يسلكه الصالحون، ومن صبر عليه وصل إلى مقصوده من رضا الله والجنه، وحقيقته أفراد الله بالعبادة وإفراد رسوله بالطاعة (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

و**حقيقة الهداية أن تسأل الله أن يدلك ويعلمك ويبصرك** لكل ما يحب ويرضى في كل ما يواجهك في أمور هذه الحياة، ثم هو عزَّوَجَلَّ يحبيبك في العمل الصالح الذي يرضيه عنك، ويقويك على العمل بما علمت على أدائه على الوجه الذي يرضاه جَلَّوَعَلَا وهذا هو الشرط الثاني لتحقيق العبودية، وهو





المتابعة، لأن الله لا يقبل العمل إلا إذا كان موافقاً للصراف المستقيم، وهو صراف الذي أنعم الله عليهم، وأولهم الأنبياء.

❁ والهداية نوعان:

هداية البيان والتعليم والدلالة والإرشاد، وهذه الهداية عامة، فالله تعالى هاد للعباد، أي مبين لهم ومرشد ❁ **وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى** ❁ [سورة فصلت: آية ١٧] ومن دقائق تلك الهداية في الأمور المختلف فيها **«أَهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ»** ^(١) والرسل هداة إلى الله تعالى.

وهداية التوفيق والإلهام وشرح الصدر للقبول والعمل، وهي فيض وإنعام من الله عز وجل وخاصة به ❁ **وَلَا كُنْ لَآلِهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** ❁ [سورة القصص: آية ٥٦] وهي قبول القلب للحق، وانسراحه به، ومحبته له، والعمل به.

ودعاء طلب الهداية إثبات نبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و**ضرورة اتباعه،** فإذا قام بها حق قيامها بطاعة الرسول فيما أمر كان جزاؤه من جنس العمل ❁ **يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ** ❁

(١) جزء من دعاء الاستفتاح في قيام الليل، أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (رقم ٧٧٠).





[سورة يونس: آية ٩] فمن اهتدى بدلالة وإرشاد النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى معرفة الحق، واهتدى بتوفيق الله إلى العمل والثبات (وفقني واهدني إلى ما تحب وترضي) فإن الله يمن عليه بتمام الهداية بأن يشاهد تقصيره وذنبه ليتوب منه ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة النور: آية ٣١] وهكذا الرسل جميعاً كلهم بعثوا ليهدوا ويدعوا الناس إلى ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو توحيد الله وطاعة أوامره وترك نواهيه.

والهداية هي الدلالة بتلطف، فمن ذلك على شي بتلطف فقد هدأك، فإذا ذلك بغير تلطف فقد أمرك، وربنا هدانا بلطف بأن بعث لنا الرسل، وأنزل علينا الكتب وبين معالم السبل، فحذر من طرائق الضلالة وأبصر بطريق الحق، وهو الإسلام الذي اشتمل على سعادة الدنيا والآخرة، وحاجتنا إلى استمرار تلك الهداية وثباتنا عليها حتى نلقاه أشد من حاجتنا إلى الطعام والشراب والنفس لأنها النجاة وسبيل الفوز.

سؤال الله تعالى الهداية أجل مطلوب وأعظم مقصود، فهو خير الدنيا والآخرة، فاذا هداه إلى ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أعانه



على طاعته وترك معصيته، فهو في حمايته لم يصبه شر في الدنيا ولا في الآخرة، لذا فرضه الله تعالى على جميع عباده فرضاً متكرراً في اليوم واللييلة.

﴿ **أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾** ﴾ **يشمل طلب الهديتين: بين** لنا ودلنا وأرشدنا إلى معرفة الطريق المستقيم الموصل للعلم وللعمل الصالح، أقصر وأيسر الطرق إلى معرفتك ورضاك وجنتك. وألهمنا رشدنا ووقفنا للاستقامة عليه والثبات بعد معرفته حتى لقاءك.

فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته، والتوجه إلى الله في هذا الأمر ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين، وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه، فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين بتحقيق الغاية من الوجود، وهي في حقيقتها هداية فطرة الإنسان في الاتجاه إلى الله رب العالمين.

طلب الهداية يعني: أرشدنا يا ربنا ودلنا إلى ما تحب وترضى من الأقوال والأفعال، وثبتنا ووقفنا إلى الاستقامة والاستدامة. تسأل ربك أن يهديك هذا الصراط كمنهج حياة،





وأن يرشدك إليه، وأن يعلمك إياه، وأن يثبتك عليه حتى لا ننحرف أو نزيغ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [سورة آل عمران: آية ٨] حتى تحقق ما عاهدت ربك به من العبادة والاستعانة.

﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو دين الله، هو توحيد الله والإخلاص له، وهو الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، وهو العبادة التي أنت مخلوق لها، فالرسول بعثه الله ليهدي إلى صراط مستقيم.

الهداية: أن تعلم حق الله عليك، وأن تعلم ما أوجب الله عليك، وأن تعلم ما حرم الله عليك، وأن تستقيم على أداء ما أمرك الله به، وعلى ترك ما حرم الله عليك، وتعمل بطاعة الله، وتحذر معاصي الله، وتقف عند حدود الله، ترجو ثواب الله وتخشى عقاب الله، والوقوف عند حدوده.

﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو أداء أوامر الله عزَّجَلَّ وترك نواهيه، وأن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نهي عنه، وأعظم الأوامر توحيدَه والإخلاص له، وأعظم المناهي هو الشرك به، فالله وعد المهتدين بالسعادة في الدارين، في الدنيا بالرحمة، يرحمهم





الله بالتوفيق والهداية والتسديد، وفي الآخرة بإدخالهم الجنة والرضا عنهم، هذا هو جزاء أهل ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

أهل ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هم أهل الاستقامة في الدنيا عن محبة وعن رغبة، وعن صدق وعن إخلاص لله، وعن موالة لأولياء الله ومعاداة لأعداء الله، وصبر على طاعة الله، وكف عن محارم الله، وتواص بالحق، وتعاون على البر والتقوى، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر. هكذا المؤمنون، هكذا الصادقون، هكذا هم أصحاب الصراط المستقيم.

والمصلي حين يدعو ويسأل ربه سلوك ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ طريق أهل الجنة، يستشعر منة الله وفضله ورحمته حين عرفه هذا الصراط، فيزداد قلبه محبة لله تعالى وشكرًا لنعمته، ويسأله السلامة من حال المخالفين، فيشتد خوفه من مسالك المغضوب عليهم والضالين، فيعيش بين الخوف والرجاء بعد المعرفة والحب، وبذلك تكتمل عبوديته وتحقق سعادته.

حريّ بالمسلم أن يلهج في ليله ونهاره بطلب الهداية والثبات عليها، فإنه تعالى إذا هدأك هذا الصراط أعانك على طاعته وحب إليك عبادته وترك معصيته، فلم ولن يصيبك شر





لا في الدنيا ولا في الآخرة، ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه.

﴿وَأَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ^(١) **تعني:** اهدنا إلى الصراط، واهدنا في الصراط، أي: أرشدنا إلى لزوم الإسلام في أصله وتفاصيله الدينية، فقد يَهْدَى إلى الأصل ويضل التفاصيل، فقد يَهْدِي إلى الصلاة لكن لا يَهْدِي إلى الخشوع فيها، والهداية لا تكتمل إلا إذا تحقق لك العلم بالإيمان والعمل الصالح بما علمت والدعوة إلى الخير والصبر على ذلك، في كل لحظة وكل نفس تحتاج إلى الهداية، فاحمد ربك على هذه النعمة العظيمة، واحرص على هذا الدعاء، وأحضر قلبك عند هذا الدعاء في الصلاة وغيرها؛ هذا الدعاء العظيم الذي أنت في أشد الحاجة إليه.

﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ **يعني:** الزموه واستقيموا عليه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥٣] وهي البدع، والمعاصي التي ينهى الله عنها، فالسبل هي البدع والمعاصي والمنكرات التي حرمها الله على عباده، فالواجب الحذر منها ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ وَرَزَقَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ





وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ [سورة الحجرات: آية ٧-٨] فاللهم لك الحمد
والشكر على نعمة الهداية، فهي من أعظم المنن، وهذا هو
الصراط المستقيم الذي لم يعط أحد في الدنيا والآخرة أفضل
منه، كما من الله على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الفتح بقوله
﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿٢﴾ [سورة الفتح: آية ٢] فاللهم اهدنا
الصراط المستقيم إذا انتشرت البدع والخرافات، وعصفت
بالناس الشهوات واللذات، واللهم اهدنا الصراط المستقيم
كلما ضلت العقول والأفهام، وشطت الآراء والأقلام، واشتد
الضلال والظلام.

أحضر - أخي - قلبك في كل ركعة تركعها، وتذكر هذا
الدعاء العظيم، فمن لم يهده الله فمن يهديه؟ ومن لم يشبهه الله
فمن يشبهه؟ من لم يحفظه الله في مثل هذا الزمن فمن يحفظه؟
فاعتصم بالله، وإياك أن تعتمد على نفسك الضعيفة مهما
بلغت، فالله تعالى يقول ﴿وَحَلَقَ الْإِنسَانَ ضَعِيفًا﴾ ﴿٢٨﴾ [سورة
النساء: آية ٢٨] ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٠١﴾
[سورة آل عمران: آية ١٠١].





أعلن الضعف والافتقار، وأكثر من الدعاء والانكسار
للعزيز الغفار، فلا معين لك في السير على الصراط المستقيم
 إلا الله، لا عاصم لك من الفتن إلا الله، لا منجى لك في زمن
 الشهوات إلا الله، ولذا فقد كان الرسول **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يكثر في
 سجوده من قول: **«يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»** (١)
 وفي الحديث: **«يُقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِيَ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ
 هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِيكُمْ»** (٢) وفيها أهمية الدعاء وأدب
 الدعاء، فالسورة قد اختتمت بالدعاء.

يا من سرتم على الصراط المستقيم، يا من تجاهدون
 أنفسكم للثبات عليه اصبروا وابتشروا ولا يغركم كثرة الهالكين
 ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يوسف: آية
 ١٠٣] هكذا أهل الاستقامة يشعرون بغربة كلما كثرت الشهوات،
 فصبراً يا من جاهدتم أنفسكم على ترك المعاصي والسيئات
 وصبرتم عن الشهوات، ولسان حالكم يقول: **﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا**

(١) أخرجه الترمذي في كتاب القدر، باب: ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن
 (رقم ٢١٤٠) وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب: دعاء رسول الله صلى الله
 عليه وسلم (رقم ٣٨٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظلم (رقم ٢٥٧٧).



عَبُوسًا فَظَرِيرًا ﴿١٠﴾ [الإنسان: ١٠] فأبشروا حين يقال لكم: ﴿إِنَّ هَذَا
كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا﴾ [سورة الإنسان: آية ٢٢].

وللهداية مرتبة أخرى هي آخر مراتبها، وهي الهداية يوم
القيامة إلى طريق الجنة، نسأل الله الكريم من فضله، فمن هُدي
في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله
وأنزل به كتبه، هُدي هناك إلى طريق جنته ودار مثوبته، وعلى
قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده
في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على
متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على
ذاك الصراط.



ولينظر إلى الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره
عن هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلايب التي بجانب ذلك
الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا
وقويت فكذلك هي هناك، فمن التزم صراطه في الدنيا جازَ
الصراط في الآخرة، ومن علق كلابيب الدنيا والهوى بقلبه
خطفته كلابيب جهنم من على طرفي الصراط، نسأل الله الهداية
إلى صراطه المستقيم إرشادًا وتوفيقًا.





من اهتدى بالدلالة والإرشاد إلى معرفة الحقِّ، واهتدى بتوفيق الله إلى العمل والثبات، وتمَّت له هدايته بأن يُهدى إلى تقصيره وذنبه ليتوبَ منه، كان ممن يهديهم ربُّهم إلى منازلهم في الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [سورة يونس: آية ٩].



﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾  

تفاصيل الانتماء للفريق الفائز).

فيه إسنادُ النعمة إلى الله تعالى وحده في هداية الذين أنعم عليهم؛ لأنَّها فضلٌ محضٌ من الله، وهو تفصيل بعد إجمال لقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فإذا جاء التفصيل بعد الإجمال ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوفة إليه، وفيه دليل على أن العقل لا يستقل بإدراك تفاصيل الصراط المستقيم، بل هو مفتقر في ذلك إلى الشرع، فهو شعور الشوق للانتماء





وقفات تدبرية و فوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



والانضمام واللحاق بهذا الفريق الفائز المنعم عليهم، وهم الرسل وأتباعهم، وعلى رأسهم إمامهم وخاتمهم نبينا محمد **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** وسر إعادة لفظ (الصراط) مرة أخرى لتعريفه وتعيينه والتأكيد على أن الدين في ذاته نعمة عظيمة.

هذا صراطهم، صراط المنعم عليهم، هم أهله، ممن حققوا الكمال في عبادتهم، أو حقق الله لهم ذلك من أهل العلم النافع والعمل الصالح، الذين أنعم الله عليهم بسلوكه تشويقاً إليه وتشريعاً لأهله الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان وطاعة الله ورسوله والهداية والاستقامة، عرفوا الحق وفقهوه، وعملوا به ودعوا الناس إلى ما تعلموا، فالمنعم عليهم هم من عرفوا الحق وتمسكوا به وعملوا به، من وفقهم الله لسلوك الهدى ودين الحق، والله إنها أجل نعمة وأعظمها، هي سر السعادة في الدارين.

ثم أنت أيضاً يشد شوقك إلى المنعم عليهم إذا علمت أنك تنجو أيضاً من الفريق الآخر، وهم المغضوب عليهم والضالين الذين تنكروا للدين القويم وللصراط المستقيم، إما جهلاً وإما تكبراً وعناداً.





فالمغضوب عليهم هم الذين عرفوا الحق وحادوا عنه ولم يعملوا به وجحدوه فغضب الله عليهم، كاليهود ومن سار على طريقته من علماء السوء الذين يعرفون الحق ويحيدون عنه ولا يدُلُّون إليه، فاليهود تعبدوا على خلاف العلم، وتابعوا أهواءهم حسداً وبغياً، وهم يعرفون أن محمداً رسول الله وأن الله بعثه بالحق، ولكن حادوا عن الحق تكبراً وتعاضماً وإيثاراً للدنيا على الآخرة وحسداً من عند أنفسهم.

والضالون هم الذين لا علم عندهم ويعملون بلا علم ويعبدون الله على جهل، وهم النصارى ومن سار على طريقته ممن جهل الحق ولم يبال بدين الله بل اتبع هواه.

والنصارى جهال، يغلب عليهم الجهل والضلال، وهم أقرب إلى الخير من اليهود؛ ولهذا يسلم منهم الجم الغفير في كل وقت، أما اليهود فيندر أن يسلم منهم أحد، أما النصارى فكثيراً ما يدخلون في الاسلام لأن قلوبهم أقرب إلى الخير من قلوب اليهود، فالنصارى أقرب وقلوبهم ألين من قلوب اليهود؛ لأن علتهم الجهل والضلال، فإذا عرفوا وبَّين لهم رجع كثير منهم إلى الحق، أما علة اليهود فليست الجهل بل





علتهم الحسد والبغي ومخالفة الحق على بصيرة، فعلتهم خبيثة، وهي التكبر عن اتباع الحق والحسد لأهل الحق؛ ولهذا قلّ وندر من يسلم منهم، نعوذ بالله من ذلك.

ولأن سر الضلال يرجع إلى أحد هذين الأمرين؛ العلم والعمل، والوقوع في ضدهما، ف ضد العلم الجهل، فقد توجد عند الإنسان الرغبة في عمل الخير لكنه يسلك طرقاً مبتدعة ويجهد نفسه وهو يحسب أنه يحسن صنعاً بسبب قلة العلم ونقص هدايته. و ضد العمل الهوى، فقد يكون الإنسان عالمًا بما يرضي الله وفق شريعته، لكنه لا يجد العزيمة، فيغلبه الهوى ويترك الواجب، أو يرتكب المحرم عامدًا لضعف إيمانه ونقص هدايته.

والخلاصة: أن أسباب الخروج عن الصراط المستقيم والوقوع في شرك الشبهات والشهوات إما العناد والهوى أو الجهل والضلال، فيحتاج العبد المؤمن أن يهديه الله، فقد تكون لديه العزيمة والرغبة في عمل الخير في جهل الطريقة الشرعية فيسلك طرقاً مبتدعة (فساد العابد) وقد يكون عالمًا لكن ليس لديه عزيمة لينبعث بالعمل بهذا العلم، فيغلبه الهوى





فيترك الواجب أو يرتكب المحرم لضعف إيمانه (فساد العالم) وكلاهما على خطر.

فمن غلب عليه الاستهانة بالدين ونبذه عن عمد فهو شبيه باليهود، وهم من عرفوا الحق وتركوه، يجتمع فيهما الغضب والضلالة لقتلهم الأنبياء، فمعهم علم لكن لم يعملوا به، فأمرهم وذنبهم أخطر، فالغضب في اليهود أخص. أو ضال يركب هواه بسبب الجهل والضلالة وعدم الإصغاء لتعاليم الله، ولا يمنع أن يكون قد طرأ عليهم بعد ذلك العناد والإصرار، والضلالة في النصارى أخص بإصرارهم على أن عيسى ابن الله.

قدم المغضوب عليهم على الضالين لأن أمرهم أخطر؛ لأن الإنسان إذا كان في ضلال بسبب الجهل فإنه يرتفع بالعلم، أما إذا كان ضلاله بسبب الهوى فلا يكاد يرجع أو يتوب، ولأنهم أشد مخالفة للحق من الضالين فيصعب رجوعهم، بخلاف المخالف عن جهل، ولأن أخص الموصوفين بالمغضوب عليهم هم اليهود، وأخص الموصوفين بالضالين هم النصارى، واليهود سابقون على النصارى في الزمن.





في قوله عزَّجَلَّ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يظهر صفات الكرم والحمد والرحمة، وقوله: ﴿غَيْرِ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ تظهر صفات القدر والمجد، وفيها إيمان بقضاء الله وقدره، بأن النعمة كلها من الله الذي وهب الهداية لمن أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فهم الأنبياء والرسل وأتباعهم، وكفى بها من نعمة أن يكون المؤمن في صحبة هذا الركب المبارك، فلا يستوحش وإن كان وحده، ولا يكثر بمخالفة من خالف؛ لأن مرافقيه فيها في غاية القلَّة والعزَّة، والنفوسُ مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأُنس بالرفيق - نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق وأنهم هم ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [سورة النساء: آية 69] ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشةُ تفردِه عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكثر بمخالفة الناكبين.

وعندما يتوسل العبد بقوله: ﴿أَنْعَمْتَ﴾ أي: أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي





نصيياً بأن أكون واحداً من هؤلاء المنعم عليهم. وفي ﴿أَنْعَمْتَ﴾^(١) توسل واستعطاف لقبول الدعاء «أَهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ»^(١) واحسن لي في جملة من أحسنت إليهم، ربي أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقاً لهم ومعهم، فهو توسُّلٌ إلى الله بنعمه وإحسانه؛ أي كما أنعمت بالهداية عليهم فاجعل لي نصيباً من هذه النعمة، واجعلني واحداً من هؤلاء المنعم عليهم، وتصدَّق علي في جملة من تصدَّق عليهم، وَعَلَّمَنِي في جملة من عَلَّمْتَهُمْ، وَأَحْسِنُ إِلَيَّ في جملة من شملتهم بإحسانك.

والنعمة العامة تكون لسائر الخلق، أما هنا فهي النعمة المطلقة الكاملة الخاصة من كل وجه، وتكون لمن علم بالحق علماً نافعاً وعمل به عملاً صالحاً، فهو سائر على الصراط المستقيم أصحاب النعمة المطلقة.

وفي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿أَنْعَمْتَ﴾ ولم يقل (المنعم) كما في المغضوب دلالة أن أفعال الجود والرحمة تنسب وتضاف إلى

(١) جزء من دعاء القنوت، أخرجه أبو داود في كتاب الوتر، باب: القنوت في الوتر (رقم ١٤٢٥) والترمذي في كتاب الوتر، باب: ما جاء في القنوت في الوتر (رقم ٤٦٤) والنسائي في كتاب قيام الليل، باب: الدعاء في الوتر (رقم ١٧٤٥).





الله عَزَّجَلَّ وأن الإنعام يستوجب ذكر المنعم، فكان من الأولى إبراز الضمير المتضمن ذكره عَزَّجَلَّ وأن النعمة بالهداية لله وحده؛ أنت وحدك المنعم المتفضل بهذه النعمة، أما الغضب فإن الله عَزَّجَلَّ غضب على كل من لم يكن من أهل الهداية إلى الصراط، وأمر المؤمنين بمعاداتهم، وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم، وفيه إشعار بإهانة المغضوب عليهم وتصغيرهم في حذف فاعل الغضب مقابل ذكر فاعل النعمة من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره.

ثم إن النعمة هي الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام والعدل، والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقيهما وأقواهما، وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه وحذف الفاعل في مُقابلتها، كقول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرَأُ رَيْدَ يَمَنٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ أُرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا﴾ [سورة الجن: آية ١٠].

وفي قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ليس بتخصيص يقتضي نفي كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى، فإن كل مغضوب عليه ضال، وكل ضال مغضوب عليه.





ونستشعر أن طريق الحق واحد، وهو الإسلام، فنلتزمه، وأن النعمة الحقيقية في الدنيا والآخرة لا تكون إلا بطاعة الله والعبودية الحقة له، وهو مسار الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وأن المرء يحشر مع من أحب.

وفي هذا الدعاء تصريح وإقرار من الداعي بمعتقده،
وتصديق به، وتوسل إلى ربه بهذا المعتقد، وإخبار به أنه
﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وأن هذا الصراط هو الحق لمن
اختصهم الله برحمته ونعمته وكرامته، بل أن أوصاف المطلوب
تجعله أشد طلباً له وأعظم رغبة فيه وأحرص على تكرار ودوام
السؤال.

ولما كان تمام النعمة على العبد إنما هو بالهدى والرحمة،
كان لهما ضدان، هما الضلال والغضب، فأمرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ
نسأله كل يوم وليلة مرات عديدة أن يهدينا صراط الذين أنعم
عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة، ويجنبنا طريق المغضوب
عليهم، وهم ضد المرحومين، وطريق الضالين، وهم ضد
المهتدين، ولهذا كان هذا الدعاء من أجمع الدعاء وأنفعه
وأفضله، فندعوه تعالى ١٧ مرة في اليوم والليلة أن يمتتنا على





وقفات تدبرية و فوائد مختصرة مع آيات سورة الفاتحة



الإسلام لا مبدلين ولا مغيرين، وأن يعصمنا من الانحراف، أو الافتتان بملة أهل الغضب والضلال أو غيرهم.

**وعندما تلحظ مواهبهم وذكاءهم وأموالهم وتنعمهم
بدنياهم وانفعال اسباب الدنيا لهم، وأنت لم تنل من ذلك
شيئاً، فتذكر منة الله عليك بهدايته لك إلى النعمة ﴿أَنْعَمْتَ﴾
نعمة الإسلام، لا بذكائك، فالزم عبودية الله حتى تستحق ثوابه
الأخروي ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [سورة الأعلى: آية ١٧] وكن من
الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، ولا تأمن الخاتمة كيف
تكون.**

**وكلما تقرأ (صِرَطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ تذكر من أنعم الله
عليهم من قبلك، هذا الكم الهائل من المعاني المتجددة في ختام
السورة يطبع في ذهن قارئ القرآن آلاف الصور عن القدوات
الصالحة، الماضية والمعاصرة، وآلاف الصور عن القدوات
السيئة، مما يعطيه خشوعاً رائعاً وزيادة في القرب من الله والتزام
شرعه، صلاة بعد صلاة، وبذلك تصبح صلاتنا حية.**

تم بحمد الله، وهو سبحانه من وراء القصد.





الفهرس

٥ المقدمة
٩ تعريف عام : بين يدي السورة
٣٥ القسم الأول : الثناء والتوسل
٨٣ القسم الأوسط : الإقرار
١١٨ القسم الثالث : الدعاء

